سالمة صالح

زهرة الأنبياء

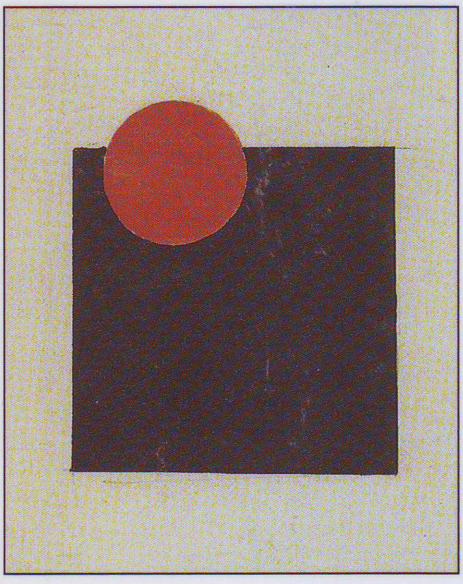

منشورات الجمل
قصص

سالمة صالح

زهرة الأنبياء

ـ ذكريات ـ

منشورات الجمل

سالمة صالح: **زهرة الأنبياء**، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ما من طريق يسلكه المرء مرتين

أعرف أنني سأعود يوما، أبحث عن زهور النرجس تحت ساعة البريد، عن طريق ينحدر عبر حقول القمح إلى محطة القطار، عن أعمدة المرمر وتيجانها ترتمي في ساحة دار كانت ذات يوم دارنا، وأعرف أنني لن أجد شيئا من ذلك. لقد بحثت مرة عن غابة حور انسللت يوما بين أشجارها فابتلت قدماي بماء لم أره، ينساب تحت العشب الغض يترصد الخطوات الفضولية، غابة لا طريق للسابلة فيها، لم يكن قد مر على ذلك سوى بضع سنوات، بحثت عنها فما وجدت سوى جدار أصم من التوتياء كُتبت عليه إعلانات بحروف ملونة كبيرة. وفي مرة أخرى بحثت عن غابة سرو في «زاويته»، تلك المدينة الضائعة في انحناءات الطرق، كنت قد فُتنت بها طفلةً، فلم أجد المدينة برمتها. كانت أرض أخرى بأشجار أخرى وشوارع جديدة قد احتلت ذلك المكان. أبحث عن أطفال لعبت معهم فأجدهم قد شاخوا، فلماذا أعذب نفسي بحثا عما لا عودة له؟

لقد كانت حياة جد عادية، حياة آلاف من الأطفال، يقدم العالم لهم نفسه في العشبة التي تنبت بين بلاطات الأرض، في

الدودة التي تفاجئ أصابعهم وهم يحفرون التراب وفي لسعة النحل. لكنها تبدو الآن وقد خلفتها ورائي عالما ساحرا، مليئا بكنوز لا تنضب.

تنبعث في الذاكرة من جديد سحب الدخان ورائحة الخبز الساخن وطعم الانتظار لطفل نافد الصبر، يرقب رغيفا يقلب على وجهه الآخر، لم ينضج بعد، أصابع صغيرة تنقل الرغيف الذي نضج لتوه من يد إلى أخرى فلا تحترق، أو تفقأ الفقاعات السمر على وجهه، وأعود طفلة. لكن لا ذلك البيت العتيق تنبت الغبيرات على ستراته ولا الخبز ينضج على صاج تفرقع تحته أعواد الطرفاء وهي تحترق، والطفولة لا تكون إلا وسط كل هذا. ولكن ما من طريق يسلكه المرء مرتين.

المعصرة

في الصباح الباكر، ننحدر عبر سلم يضيء النهار درجاته الأولى. كلما هبطنا تركنا الضوء وراءنا. ما كنا لنتجاوز منتصف هذا السلم الذي يقود إلى هوة عميقة، سرداب مظلم. نمكث لحظة فنعتاد الظلمة، ونتبين حجارة الرحى، حجارة عظيمة شقراء تتعامد مع نظيرة لها وتدور عليها. تلك هي المعصرة. لعلنا رأينا مرة أو مرتين زيت السمسم من مزراب عند أسفل الرحى، فمكثنا نراقب تلك الكمية الهائلة من هذا السائل الكثيف ذي اللون الترابي، كنا نحب هذا السائل ممزوجا بالسكر أو «الحلو» غير أننا ما كنا نذهب إلى المعصرة من أجله، فقد كنا نستطيع شراءه من الدكان القريب. كان ثمة شيء أكثر ندرة، لا نستطيع شراءه إلا من ذلك المكان. أقراص داكنة منبسطة بحجم كف اليد كتلك الحصوات التي تُنتقى من قاع النهر وتذهب إلى مطابخ البيوت، تلك هي حثالة السمسم المعصور، تُبسط أقراصا صغيرة سميكة، ندفع في كل خمسة منها عشرة فلوس ونحملها إلى البيت. ما كنا نذهب لشراء هذه الأقراص إلا نادرا، لكننا أحببناها. كان بوسع

الواحدة منا أن تلتهم نصف قرص من هذه العجينة الدسمة. ثم أنني ما حصلت على هذه الأقراص بعد ذلك.

بوسع المرء أن يحصل في أية مدينة على تلك الأطايب، فالمدن تقدم هداياها لبعضها، تعلن عنها لافتات كبيرة متباهية، مكسرا الموصل، لبن أربيل، أو يعرضها باعة يفرشون بضاعتهم على الأرصفة، قضامة، زبيبا، فستقا، غير أن تلك الأقراص ما كانت لتخرج من المعصرة، ما كانت لتصل إلى أقرب دكان. وكان لا بد للحصول عليها من الهبوط بضع درجات نحو تلك الهوة، ذلك السرداب العميق، والانتظار بضع لحظات أو ربما دقائق كيما يتنبه العامل إلى وجودنا. إن تلك الحثالة التافهة لتبدو الآن شيئا رائعا مثل جميع الأشياء التي لا عودة لها.

الاكتشافات الأولى

يجتهد محمد كي يحتفظ بتوازن جسده وهو يسير على الشريط الحجري الذي يفصل بين النجيل والرصيف. فلأدعه يفعل. أنا أيضا فعلت ذلك ذات يوم. إن المرء ليتقدم في السن، ويزداد بعدا عن طفولته، فإن لم يحتفظ بذاكرة يقظة سقط كل شيء في النسيان وانتظمت الأشياء والأفعال في سياق منطقي.

لقد أحببت في طفولتي الخروف العنيد الذي لم يعبر النهر، وسخطت على الراعي، ولم يطرأ لي أبدا أن على الخروف أن يكون مطيعا وأن يعبر النهر. ولا تساءلت مرة لماذا يرفض الخروف عبور النهر. ورأيت في قصة نور الدين الذي ذبح ثوره حين قصده شخص يطلب مساعدته ولم يكن لديه مال قمة المأساة. لم يشتر أحد لحم الثور، لكنهم تسابقوا إليه إذ دعاهم لأخذه بالمجان. إنفطر قلبي حزنا لنور الدين الذي خرج يجر جلد ثوره في آخر النهار. وحفظت قصة القرد والغيلم عن ظهر قلب لأنني أحببتها. وما كنا نحب درسا كما أحببنا الدرس الذي كنا نخرج فيه إلى ساحة المدرسة أو سطحها في أيام الشتاء المشمسة فنترك كتب اللغة الانكليزية أو الجغرافية في زاوية ونتفرق لنمرح بينما كانت المعلمة

تتابع حياكة الصوف وتتفحص كرة الخيوط بين آونة وأخرى. وحين كنا نتلو مقطوعة من الشعر في الصف، كنا نرفع أصواتنا ما استطعنا فتصبح التلاوة لونا من الصراخ يسمعه التلاميذ في الصفوف الأخرى. كنا نزهو بهذا وكانت المعلمة تثني عليه.

وفي السنوات الأولى كنا نكتشف بين أسبوع وآخر طفلا قد بلل مقعده فيرفع طفل آخر إصبعه ويشير إلى البركة الصغيرة تحت القمطر، فتطلب المعلمة من التلميذ الذي بدأ يشعر بالعار منذ هذه اللحظة أن يغادر الغرفة ويقف في الشمس لتجف ثيابه. كان الأطفال إذا ما رفع أحدهم إصبعه مستأذنا بالخروج يرفعون أصابعهم جميعا، وتنتهي المعلمة إلى عدم السماح لأي منهم بمغادرة غرفة الدرس. ثم بين هذه الأصابع المرفوعة تكتشف أن واحدا منهم كان صادقا وأن الخوف منعه من الإلحاح في طلبه. هل كانت المعلمة تشعر بعد ذلك بالأسف أم أنها كانت تعتقد أن تضحية صغيرة كهذه ضرورية لحفظ النظام؟ هذا ما لم أعرفه أبدا. كما لم أعرف لماذا يكون الطفل غرابا في الصف إذا لم يحفظ درسه وفي البيت إذا بكى، وقد رأيت الغراب بعد ذلك وسمعته فما وجدته قبيحا ولا وجدت خوار البقرة أجمل من نعيبه.

لم يعد ثمة أطفال يبولون على مقاعدهم في الصف ويراقبون معلمة الحساب أو اللغة وهي تتابع حياكة الصوف وتتفحص كرة الخيوط بين آونة وأخرى، لكن كومة أنقاض أو رمل على جانب الطريق ستبقى أبدا عالما جديرا بالاكتشاف، وحصاة تستقر في الجيب كنزا لا يعادله شيء.

يراعات

تومض في ظلمة المساء واحدة من تلك الحشرات الأثيرة لدى الأطفال، شمعة الحصاد، نقطة ضوء، نجمة تتحرك أمام عيني، ترتفع مبتعدة ثم تغيب. وأضطرب. لا سبيل إليها وقد ابتعدت. في المساء، قرب بيادر القمح كانت الومضات ترى بين دقيقة وأخرى. أما في النهار فكان الوقوع على واحدة منها أكثر صعوبة. يصطادها الأولاد ويحبسونها في علب الثقاب. يفتح أحدهم العلبة في حذر حتى منتصفها، فنرى واحدة من تلك اليراعات السود يشوب جناحها الصلب شيء من الاخضرار، كنت أبحث بلهفة عن واحدة أمتلكها، وكنت أصادف جعلا أغطيه بكفي لعله يضيء، أحمله إلى البيت مغتبطة فإذا رآه الصبية خبروني أنه ليس سوى حشرة منطفئة، حشرة لا قيمة لها، وإنني أخطأت. أبحث عن زاوية مظلمة أحمله إليها، أغطيه بكفي ثانية لعله يأتلق في الظلمة، لا جدوى. إنه لا يساوي شيئا. لقد كان الصبية أكثر توفيقا منا في التقاط هذه الحشرات. أحيانا كانوا يبيعونها لأطفال آخرين. إنهم على الدوام يستطيعون الحصول على واحدة منها.

لكن هذا الاخفاق لن يحملني على أن أتخلى عن حلمي في

الحصول على سراج الليل هذا. نمر مرة أخرى من ذلك الطريق، حقول القمح التي كنا نختبئ فيها فتبلغ سنابلها رؤوسنا، قد اختفت مخلفة مساحات شاسعة من أرض تكسبها جذامة القمح لونها الذهبي، وتتناثر فيها بيادر وأكوام قش. تنبعث هنا وهناك روائح زهيرات برية جفت واختلطت بالقمح. لقد انتهى موسم النزهات منذ أسابيع، ولم يعد يرى المرء سوى آخر الفلاحين يحملون مذاريهم، يسوون أطراف هذه الكومة من القش أو يجمعون ما تناثر حول تلك من سنابل قبل عودتهم إلى البيت. تطير يراعة وقد أفزعتها يد خشنة أو مذراة. تبتعد باحثة عن مكان أكثر أمانا. ما كان الفلاحون ليكترثوا بها أو حتى ليلاحظوها. إنهم في عجلة، يريدون أن ينهوا عملهم ويعودوا إلى منازلهم. أمي أيضا في عجلة. لقد تقدم المساء وهي تريد أن تصل إلى البيت. نتابع طريقنا مخلفين البيادر وراءنا. على جانبي الطريق أرض جف عشبها، إلا في بقع صغيرة متباعدة. ليس ثمة يراعات تأتلق في الظلمة، أو لعلها كانت هناك تنام في مأمن، مستترة بالعشب لا يقلق سلامها أحد.

الجبل

هذا هو الجبل إذن، أقرب منالا مما ظننت. إنه يرتفع ارتفاعا هينا أستطيع أن أتجاوزه بنظري. وثمة مسالك كثيرة تقود إلى قمته عبر ألوانه الأليفة: خضرة فاقعة مبقعة بالبياض، ليست هناك صخور عظيمة، ولكن صخورا تخرج رؤوسا ناتئة من تراب الجبل. وبعيدا قرب القمة ثمة جدار أصم إلا من ثقوب سود صغيرة لعلها كوى أو نوافذ، يمتد مستقيما في مواجهتنا. إنه البناء الوحيد في هذا المكان القصي المنقطع. لقد بدا لي بعيدا حقا، لكنه ما بدا لي مرتفعا أبدا.

وأفلتُ من المجموعة، هذا طريق واضح وسهل. الأمر يتحول عندي دائما إلى سباق، وقد كنت طفلة نافذة الصبر لا تطيق الانتظار. تسلق الجبل ليس صعودا عموديا، لكنه المشي في مسالك ضيقة ذات مسارات حلزونية قليلة الانحدار. ما أبعد هذا عن المغامرة.

تسلقت صخورا وثآليل، وبقفزة كبيرة كنت مجددا على الطريق. إنني بهذا أختصر حلقة من تلك الحلقات الحلزونية التي تدور وتدور ولا تمضي إلى نهايتها أبدا. بين حين وآخر كنت

أتوقف، أروز المكان بنظري، أبحث عن حجارة أتشبث بها متسلقة مناطق أكثر انحدارا. وها أني أصادف من هم أكثر مني مهارة في القفز والتسلق. هذه النقيطات السود التي تتحرك على بعد ما هي إلا ماعز جبلي يرعى أولى وريقات العشب. مررت بمعزات كبيرة كانت تتريث ثم تهوي بقفزة واحدة إلى وهدات عميقة. ولم يكن ثمة رعاة. ألتفت ورائي فأرى خيطا ملونا يتابع حركته الدودية البطيئة، إنه لا يزال بعيدا، وأنتظر.

ها أننا قد بلغنا الدير. تقدمتنا المعلمات ونحن ندخل الساحة الكبيرة لدير الشيخ متي والتي كانت تخبئ لنا مفاجأة. ما أن بلغنا وسط الساحة حتى وجدنا أنفسنا وسط بحر يمور، جداء صغيرة ذات سواد براق، يتبعها راهب بثياب سود، تتقافز حولنا، تتعلق بنا في فرح. ما كان عمر هذه الجداء ليتجاوز أسابيع، وما كان حجمها ليكبر عن حجم جراء صغيرة. كانت لا تخضع لنظام في انطلاقها، فها هي تتمهل وتتقافز مطوحة بأذانها الرقيقة يمينا وشمالا. لعلها لم تر في حياتها هذا العدد من الغرباء ومن الأردية الملونة. وما كان راعيها الشاب ليضغن، يأخذ عليها نزقها أو يستكثر عليها نشوتها. إنه يتبعها، ثم لا يلبث أن يجد طريقا بينها، فإذا هو يقودها، يناديها فتتبعه. هذه هي حياة الدير، حياة الرعاة المكتفية المتواضعة. عبرنا الحظيرة، وقادنا رئيس الدير عبر ممرات مظلمة إلى شعب وغرفات، مدخرا لنا ما كان في نظره أكثر أهمية: تلك الغرفة المتواضعة تتصدرها دكة تنتصب فوقها تماثيل مضاءة بأنوار الشموع. كل شيء هنا يشي بمساع لم تثمر

إلا قليلا لإضفاء شيء من الأبهة والمهابة على المكان. هذا هو المذبح. تلا رئيس الدير صلاته، فعل ذلك عدد من معلماتنا، وأوقد بعضنا شموعا بينما مكثنا نحن نتفحص كل شيء: الجدران والتماثيل والشموع المتقاطرة. لم يكن ثمة ما يرى بعد ذلك، فانطلقنا إلى الخارج. إنحدرنا عبر الممرات الجبلية إلى أرض ممهدة في خاصرة الجبل، تنشر عليها صخرة هائلة ظلالا رفيقة. جلسنا نستريح، وما هي إلا دقائق حتى كانت أطعمة شديدة التنوع تنبسط في أطباق أو تتكوم داخل أوراق كانت ملفوفة منذ قليل. أطعمة أعدت منذ الصباح الباكر ففقدت ألوانها الحية وروائحها المدوخة. أتينا بمائنا من الكهف، مغارة مظلمة يتقاطر الماء من سقفها ويستقر في حفرة في أرضها فيغترف منها. أكلت طعامي، بضع لقيمات من خبز وبيض وشريحة لحم وانطلقت أستكشف المكان.

عند الدير ينتهي الجبل الأخضر ذو المسالك الطيعة وتنبثق من الخضرة كتلة صخرية هائلة تتعلق في الفضاء شامخة ممتنعة، ليس ثمة أعشاب بعد، إنما صخور بيض كبيرة تمسك بها تربة حمراء. أنشأت أبحث عن مواضع أثبت فيها قدمي بحذر وأنا أتعلق بصخرة نابية. وشرعت القمة تقترب. ألتفت لأرى كم ابتعدت فأسمع نداء: إنهم يبحثون عني.

زيور باشا في البئر

ها أني أقرأ قصة وأفكر: هذه قصة لا يكتبها إلا كاتب من الموصل. ما أخطأت، فليس في مدينة أخرى من يحترم الكتاب المدرسي دون جميع الكتب كما في مدينتي، وما من مدينة أخرى تقول لأطفالها: أتهدرون وقتكم في قراءة مجلة؟ كيف أخطئ؟ مدينتي وحدها تُخضع كل شيء لحساباتها الدقيقة: الوقت المهدور والمال المهدور، وفضل الرياضيات والكيمياء على دروس التاريخ. لقد عشت في هذه المدينة المضيئة بزهورها البرية وحصى شواطئها عشرين سنة، أقل من هذا بقليل، فما دخلت دارا للسينما، ولا قرأت كتابا لم تقرره المدرسة إلا خلسة، وإلا ما أفلحت في أن أجد ذريعة لقراءته. وفي درس المطالعة الخارجية ما تجاوزنا النظرات والعبرات. والكتاب الذي قرأناه خلسة ما كان أفضل الكتب.

قالت ماري ونحن نغادر غرفة الدرس: أتحبين أن تقرأي هذا الكتاب؟ ماري صبية في مثل سني، ترسل ضفيرتها الواحدة وراء ظهرها، ولا يرتفع صوتها إلى أبعد من أذن مستمعها. ناولتني الكتاب، «زيور باشا»، غلاف ملون، ربما صورة رجل بطربوش

وشارب كثيف. قرأت الكتاب فأضحكني كثيرا. كان كتابا عن أحد باشوات مصر، ربما عن أطرف ما يُنسب إلى ذلك الرجل من حكايات ومواقف. لا أذكر تماما، لكني وجدت فيه تسلية بلا ريب. في اليوم الثاني مددت يدي بالكتاب إلى ماري. قالت: «إنه لك.»

لم تكن ماري لترى ما يمكن أن يُنتفع به من كتاب. وكان أخوها قد أعطاها اياه. حسنا، لم أشأ أن أرد هديتها. أخذت الكتاب، وأعدت قراءة صفحة هنا وصفحة هناك. وفي المساء بدا لي بغلافه الملون وعنوانه الذي لا يشي بشيء، وبما يضحك من فقراته مثل جثة، لا يمكن الاحتفاظ به يوما آخر، وما كنت أجد في نفسي القسوة لتمزيقه، فطار عشرين مترا في عمق الأرض ليستقر في قاع البئر. بل ليطفو على مائه قبل أن يبتلّ ويستقر في القاع. لقد انتظرت وأصغيت فلم أسمع «بلمب» التي تحدثها الأشياء الساقطة حين تبلغ الماء.

سأنهض عما قليل وأبحث فوق رفوف مكتبتي، وبين الكتب المكدسة على الطاولات عن «الأجنحة المتكسرة» لجبران، ذلك الكتاب الذي نُهينا عنه بدعوى الأخلاق، وكنت فتاة طيبة ومطيعة فما قرأته.

شجرتا التوت

إنها مقتصدة حتى في أفراحها، مدينتي. في ربيعها غير المتعجل والمفعم بروائح العشب والأزهار البرية، كانت ثمة أماكن قليلة يذهب إليها الناس. وحين لا يتمكنون من الذهاب كانوا يروون هذه الحكاية: أرادت امراة شابة ن تخرج للنزهة فسألها زوجها: «ما الذي يجد المرء في الخارج مما لا يجده في البيت؟»

قالت المرأة: «العشب. أريد أن أفترش العشب.»

فغاب الزوج ساعة وعاد يتبعه حمّال. قاده إلى سطح المنزل وطلب منه أن يفرغ الكيس الذي يحمله على الأرض، فإذا هو عشب. فرشه على الأرض وقال لزوجته: «أردت عشبا. هذا هو العشب يمكنك أن تفترشيه.»

يا لها من حكمة. إن الزوج ليحكي هذه الحكاية لزوجته فتكف عن إلحاحها في طلب الخروج مقتنعة أو متظاهرة بالاقتناع، وتحكيها الأم لأطفالها، غير أنها ما كانت لتفلح في إقناعهم. إن الطفل ليريد عشبا نابتا، عشبا ينهض عموديا على الأرض ويمد فيها جذوره، يقاوم اليد التي تحاول اقتلاعه، وفوق ذلك لا يذبل بعد ساعة أو اثنتين، عشبا مطرزا بالزهيرات حيث المنازل القديمة

التي تشبه القلاع لا تنبت ورودا لكنما أشجار توت ضخمة، كان منها في بيتنا شجرتان عظيمتان، تطل إحداهما على الطريق فتصنع فوقه قنطرة، وتمد غصونها إلى سطح الجيران، ما كانت تمتثل لقوانين البشر إذ ما كانت تعرف سوى قوانين الأشجار. بين فترة وأخرى تقرع الباب ليظهر من يلتمسنا أن نقلم هذه الأغصان. ما كانت هذه الشجرة لتعطي غير ثمرات شحيحة بيض. أما الثانية فقد كانت تغطي ساحة الدار الواسعة بأوراقها الساقطة في الخريف. فلا نكاد ننتهي من تنظيفها حتى نجد أوراقا جديدة قد تناثرت هنا وهناك. وفي الصيف كانت تصبغ الأرض ببقع ارجوانية وأخرى سود. كان أخي يرتقيها ويهز أحد أغصانها فتمطر ثمراتها الثقيلة السود المترعة. لا تكاد هذه الثمرات تلمس الأرض حتى تكون قد تركت عليها بقعة من عصيرها، وأحيانا تنهرس تحت ثقلها وتغرق في دمها السكري. إن هذا ليحدث مرة أو مرتين حين تبلغ ثمار التوت ذروة نضجها. يرتقيها من يهز أغصانها واحدا بعد الآخر، وتجمع الثمار فتملأ منها أوان بيضية الشكل، تبطن بأوراق العنب، فنمضي بها نحن الأطفال إلى بيوت المحلة. في أيام أخرى كانت الباب تقرع لتطل امرأة تحمل إناء: «أريد بعض التوت للأطفال.» وأحيانا يأتي أطفال غرباء، فما كان أحد ليمنعهم من الدخول إلى الفناء لجمع ما كان قد سقط من الثمرات. إنها شجرة الجميع. لقد تجاوز عمر هذه الشجرة الثلاثين، أمي وحدها تعرف التاريخ الذي زرعت فيه، تاريخ لا يعرف باليوم أو السنة وإنما بترادف الأحداث. من هذه الشجرة ولدت أشجار كثيرة في البيوت

المجاورة، لكنها ستحتاج إلى سنوات طويلة قبل أن تتجاوز في ارتفاعها سطوح المنازل وتصنع قنطرة فوق الطريق.

أما الأزهار فلم تزرع في المنزل إلا في وقت متأخر. وفي تلك السنوات المبكرة كانت ثمة أزهار في البرية تكفي جميع الأطفال. رغم حكاية الرجل الذي حمل العشب إلى بيته، كانت النساء يخرجن للنزهة مع أطفالهن إلى أماكن قليلة قريبة: «قضيب البان» و «الأرض الصينية»، تلك أرض غريبة في استوائها، مساحة شاسعة خضراء، لا تنوع في الألوان، لا زهور، لا ثآليل ولا انحدارات وإنما أرض خضراء في استواء الشيء المصنوع. في طفولتي المبكرة، قبل سن المدرسة، رأيت هذه الأرض مرة أو مرتين وحملت منها جرحا لم أبرأ منه وحزنا صافيا عميقا لم تستطع كل حقائق الكبار أن تغسله. عند ساعة العودة كان يظهر قمر عظيم الاستدارة في طرف تلك الأرض المنبسطة، ملتصقا بها أو على ارتفاع يسير فوقها. كنت أحسب دائما أنني أستطيع أن أمد يدي فأتناوله. كنت أجري نحوه، لكني لا أكاد أبتعد إلا قليلا حتى تهتف بي أمي، أو تتبعني وتأخذني من كتفي. لقد نهض الجميع وجمعوا حاجاتهم؛ بسطا وآنية وأقداح شاي، واستعدوا للعودة. لقد كان القمر هناك معلقا في طرف الأرض، منخفضا، قريبا، ولم يسمح لي بلمسه، وكنت أستطيع أن أفعل.

في الأماكن القليلة الأخرى للنزهة كانت زهيرات النفلة تمنح الربيع رائحتها، زهيرات بيض، صفر، وردية يعلن عنها عبقها الذي لا يخطئه الأنف، تنتشر في تواضع بين الأعشاب، وزهيرات

الحندقوق ذات الصفرة الساطعة، زهيرات سخية نجمعها ثم نزهد فيها. أما شقائق النعمان فقد كانت أحبها إلي جميعا. كنا نجدها على سفوح تل نينوى وفي الأرض المنبسطة حوله، تنبثق بحمرتها الباهرة من العشب، تضحك لنا. نلمسها فتتطاير وريقاتها، فنبحث عن زهور لم تتفتح إلا ذلك الصباح. نجمع منها إضمامة صغيرة تذبل قبل أن نكون قد بلغنا البيت. نحملها معنا رغم ذلك، نغرقها بالماء، وحين ندرك أنها لن تستعيد رونقها نرمي بها. لكننا نكون قد حملنا شيئا من نزهتنا. لقد نشرت هذه الزهور الذابلة رائحتها، رائحة البرية في أرجاء البيت.

وفي أماكن أبعد للنزهة كان يمكن للمرء أن يعثر على زهور النرجس، أثمن الزهور جميعا. رغم أن محمدا لم يبلغ أبدا تلك المناطق النائية من مدينتي، غير أن أهلها يروون أن زهرة النرجس نبتت أول مرة حين كان رسول الله قد جلس يتناول طعامه: خبزا وبيضا، فسقط منه شيء من صفار البيض ومن بياضه، وفي ذلك الموضع انبثقت زهرة النرجس، من تلك البيضة، من ذلك الصفار والبياض. كانت تلك الزهور النبوية ذات العطر المدوخ تظهر بين الأعشاب متباعدة؛ هذه واحدة، هذا يعني أن ثمة زهوراً أخرى. هذه هي الأخرى، وأبحث حولي، وفجأة أقع على حقل من النرجس. فيتفجر فيّ فرح لا إنساني، فرح يتحول إلى انكسار في الحلق، حزن نقي طافح. هذه زهور غير قابلة للامتلاك. أقطف منها شيئا ثم أكف. أريدها جميعا. أريد هذا الحقل من النرجس. وفي طريق العودة، كانت السيارة تتوقف فيقفز إليها أطفال يحملون

باقات من النرجس. كان يمكن شراء باقة أو اثنتين بعشرة فلوس. وفي المدينة كانت تتكوم تلال من هذه الزهور على الرصيف تحت ساعة البريد. أما «قضيب البان» فلا أتذكر منه إلا الاسم. لعلي ما رأيت ذلك المكان قط. أو لعلي رأيته في السن التي لا تسمح بالتذكر. غير أن ما بقي هو تلك الحكاية المفعمة بالحزن. كنا نسمعها المرة تلو المرة، فتجرحنا القسوة فيها ولا تستطيع النهاية السعيدة أن تعيد إلينا فرح الطفولة. لقد ذهبت الصبية مرة أخرى لتملأ دلو الماء من قضيب البان. ويمثل قضيب البان في الذهن، ضريحا ومسجدا مهجورا وسط البرية، تنتظم حنفيات الماء فيه في صف طويل كتلك التي في المدرسة. الصبية تقوم بذلك العمل طول النهار، تنقل دلاء الماء إلى البيت، لأن زوجة أب قاسية تكلفها فوق ما تستطيعه فتاة يافعة. لكنها هذه المرة وقد ملأت دلوها وجدت باب المبنى موصدا. لا ريب أنها ضربته بقبضتها وهتفت بأسماء كل الذين تعرفهم فلم يسمع نداءها أحد. وبكت، لكن الباب لم ينفتح. وها هو المساء قد حل، والظلام الغامض، الظلام المخيف ينسل إلى المكان، والفتاة تطوف بالغرف واحدة بعد الأخرى فلا ترى أحدا. وفي الغرفة الأخيرة ترى الأمير النائم والمروحة قرب رأسه. تمكث هناك سبع سنوات تحرك المروحة دون كلل. وفي اليوم الأخير من السنة السابعة تأتيها امرأةٌ سَوآء: «لقد تعبت دون ريب. دعيني أساعدك.» ولا تكاد المرأة تأخذ المروحة وتحركها حتى يستيقظ الأمير:

«أأنت من فعل ذلك من أجلي سبع سنوات؟» ويقرر الأمير

الزواج من المرأة. ذلك هو قدره. سيذهب في الغد إلى المدينة ويشتري لأميرته كل ما تشتهي. وإذ يرى الصبية اليافعة يسألها:

«وأنت؟ ماذا أستطيع أن أقدم لك؟» فتطلب الصبية «لعبة الصبر».

لعبة الصبر، دمية الوحدة، لعبة الإنسان المتروك الذي لا نصير له. لا يجد من يشكو له فيتوجه إليها. إنها الأقدر منه على ابتلاع الهموم. يشتري الأمير لعبة الصبر، وينصحه البائع أن يتخفى وراء الباب، فإذا أتمت الصبية كلامها أسرع إلى اللعبة وفصل عنها رأسها. لكن هم الفتاة أكبر مما تحتمل لعبة الصبر. إنها تصغي فتنتفخ، وتصغي فتزداد انتفاخا، ولحظة تبلغ الصبية نهاية القصة تكون اللعبة قد تجاوزت قدرتها على الاحتمال فتنفجر.

لقد فهم الأمير ما كان، فطرد المرأة الشريرة وتزوج الصبية.

لم نكترث بتلك النهاية أبدا كما اكترثنا بلعبة الصبر التي انفجرت غما، وبعذاب الصبية المقهورة. إن الحزن لأطول عمرا وأبقى من النهايات السعيدة المقتضبة، إنه لينمو مع القصة ويمد جذوره عميقا في القلب. لقد أصغينا بكثير من الانتباه إلى زوجة الأب تخاطب الصبية في قصة أخرى:

«إذهبي واتينا بنار من جارتنا.»

وتبعنا الصبية التي دخلت بيت الجارة التي كانت تتناول طعامها، أعطت الصبية نارا وشيئا مما تأكل، فعادت بهما إلى البيت.

قالت زوجة الأب: «لو ذهبت ثانية ستعطيك المزيد. القي النار في الطريق وعودي إليها.»

في المرة الثانية قالت الجارة للفتاة: «لا تعودي مرة أخرى. لقد ذبحنا الأعز لنصنع هذا الطعام.»

نقلت الصبية هذا الكلام إلى زوجة أبيها، فاستيقظ الشر في نفسها. قالت للفتاة:

«إذهبي وناديي أخاك.»

خرجت الفتاة إلى الطريق ووقفت على مبعدة من الكتّاب حيث يكون محمد، وصارت تناديه: «محمد... تعال ولا تجي. حدوا السكاكين، على أبواب الدكاكين... محمد... تعال ولا تجي.»

تجرح هذه الصيحة قلوبنا فنعرف ذلك الحزن الذي يمتنع معه البكاء. ونتابع بتوجس ما سيحدث.

إن الفتاة لتتابع نداءها لأنها ما كانت قادرة على العصيان. ويعود الصبي إلى البيت فتذبحه المرأة الشريرة وتلقي عظامه في البئر. وتصنع من لحمه «شفتة» لذيذة يأكلها زوجها فيثني عليها. وتخبره بما فعلت فلا يكترث. أما الصبية الصغيرة فتمكث عند البئر تبكي أخاها.

القصة لم تنته، فما من قصة تنتهي على هذا النحو. لقد خرج الجميع ذات يوم. الفتاة وحدها لم تبرح مكانها عند مثابة البئر. لكنها تسمع هذه المرة أنينا.

«من هناك؟»

وتسمع صوتا من أعماق البئر: «أنا محمد. القي إلي بحبل لأخرج.»

لقد نهض محمد من موته، بُعِث من عظامه التي استقرت في البئر وانتقم من أبيه وزوجته.

طالما تشفينا بهما، وانتصرنا للانتقام العادل، غير أننا أحببنا أكثر ذلك النداء اليائس: «محمد... تعال ولا تجي.»

كنا نجلس قرب أمي هادئات ونصغي إلى القصص نفسها يوما بعد يوم فلا نشعر بالملل. لم تكن أمي لتحفظ قصصا كثيرة. خمس أو ست قصص على الأكثر. ولكن في مرات غير قليلة تيسر لنا أن نستمع إلى جارة عجوز تروي لنا بعض حكاياتها. كنا نتحلق حولها في ساحة الدار في ساعة مبكرة من الصباح. نجتمع عشرة أطفال، ربما أكثر، ونصغي. إنها تحكي قصصا لم نسمعها، قصصا طويلة لا تكاد الواحدة منها تقترب من نهايتها حتى تمسك بأذيالها قصة أخرى. نصغي فلا نتعب. وكلما شرعنا بسماع قصة جديدة تمنينا أن لا تنتهي. كانت الشمس تزحف فوق الجدار، تزحف إلى طرف الساحة، وتتابع زحفها مضيئة مساحات جديدة من الأرض. نحس شواظها فوق رؤوسنا، فتضع المرأة نهاية لقصتها. نضج صائحين: «إنها لم تنته.»

«بل لقد انتهت.»

«إذن فاحكي لنا قصة جديدة.»

تقول المرأة: «سيكون ذلك صباح الغد. أنظروا، الشمس قد بلغتنا.» وننظر، تكاد الساحة تتوهج بالنور، والخط الزاحف إلى

الظل قيد خطوات منا. نهرع إلى أمي فنجدها قد أعدت طعامنا. وفي اليوم الثاني كنا ننتظر الجارة العجوز لتقص علينا حكاياتها، حكايات طويلة مضطربة، ما كان بوسعنا أن نحفظها، غير أن حكايات أمي كانت أكثر الحكايات حزنا. أما أختي الكبرى فقد سمعت تلك الحكايات قبلنا، وهي أكثر قدرة على اختراع التفاصيل. غير أنها كانت أمينة عليها فما كانت تقبل التزوير.

أقول لأمي في حياء: احكي لي قصة «لعبة الصبر»، فتتردد. إنها لا تصدق أني أريد أن أسمعها بالفعل. لكنها لا تلبث أن تستجيب لإلحاحي. وتبدأ حكايتها بنفس الصوت المتريث، بنفس النبرة الجادة وغير المكترثة معا. لكنني أكتشف أنها قد نسيت تفاصيل كثيرة، وأنني لأتذكر من تلك الحكاية أكثر مما تتذكر.

حكايات أبي كانت أقل حزنا، قصص فرسان يقطعون البوادي على ظهور خيولهم، يخوضون معارك ويأتون مكارم، لكنهم يموتون وحيدين في الصحراء، أو يتخلى عنهم الحظ «فيبول الحمار على ابن أسد» المنطرح في أرض غريبة يصارع الموت ولا يقوى على الحركة.

أقرأ لأبي فصلا من قصة خولة بنت الأزور من كتابي المدرسي، يمتلئ صوتي حماسة وأنا أردد:

«نحن بنات تُبّع وحِمْيَر وضربنا بالسيف ليس ينكر».

لا أدري أكان أبي ينصت إلي حقا أم أنه كان يتظاهر بالانصات مصغيا إلى صوته الداخلي.

ثمار

نسمع نداء بائعة الخيضر فنهرع إلى أمي، نأخذ منها قطعة نقود صغيرة، ربما أربعة فلوس أو فلسين، ونطل من الباب. ها هي المرأة نعرفها من ملابسها، ملابس قرية كردية، تسير متريثة، تحمل خيضرها في خرج معلق على كتفها أو محمول أحيانا على ظهر حمار. نضع الخيضر في طاس، فلا ريب أن أمي قد نهرتنا في المرات القليلة التي وضعناه فيها في طرف أثوابنا، ونسرع إلى ساحة الدار، نقتسمه، نخضل هذه الثمرات الفجة بالماء، ونغرقها بالملح، ثم نبحث عن حجر خشن، نضعها على طرف منه ونشرع بحكها على الطرف الآخر واحدة فواحدة. تختفي خضرتها الباهتة، ويتكشف لحمها الشاحب، عندئذ تغسل، ويكون قد حان الوقت لالتهامها. أي طعم كان لهذه الثمرات فنبذل فيها كل هذا الجهد؟

في الصيف كانت المرأة تعود بخرجها، غير أن ثمراتها هذه المرة قد نضجت وجفت. ثمرات خرنوب ذات لون بني، نحركها فنسمع صوت بذورها تخشخش داخلها. نكسرها ونتأمل هذه البذور المصنوعة بدقة فائقة، بذورا صقيلة لامعة تطل من غريفاتها

داخل هذه القرنيات. لكن ثمة ما هو أطيب مذاقا. في الربيع يخرج الصبية فرقا إلى البرية، إلى أماكن لا يعرفها سواهم. نحن الفتيات نمضي النهار نلهو بلعب نصنعها بأنفسنا، قطعة خام نقصها، نخيطها ونحشوها بالخرق، ثم نركب لها رأسا يتصالب مع الذراعين، ونبحث عن ندفة صوف بنية اللون أو سوداء، نستلها أحيانا خلسة من حشية أو وسادة، ونخيطها فوق ذلك الرأس الذي لا يكون قد اكتمل حتى نرسم له عينين وأنفا وفما. وحين تتعدد هذه الدمى وتتكاثر نمنحها أسماء وعلاقات. فتلك هي الأم وذلك هو الأب وهذه هي الإبنة. كنا ننشغل بها طول النهار، نخيط لها ثيابا جديدة وفرشا، فإذا مللناها تركناها في صندوق أو زاوية وبحثنا عما نلعب به. قشور الرقي نقص منها أقراصا متقنة الاستدارة، ننحت حافاتها حتى ترق وتستوي وندفع فيها عود ثقاب يخترقها في الوسط فتتحول إلى خذروف، نشعر بالسعادة ونحن نراه يدور على محوره طويلا قبل أن يترنح ويسقط. والباميا التي ترميها أمي لأنها شائخة متخشبة لا تصلح للأكل تتحول إلى بعير، ما من شيء أكثر يسرا من ذلك، أربعة من أعواد الثقاب نغرسها فيها لتكون لها قوائم، وها هي تقوم عليها شامخة مزهوة، وإذا كنا أوفر حظا ستجد أمي أكثر من ثمرة متخشبة، تتذمر وهي ترمي بها فنلتقطها في فرح، إثنتين أو ثلاثا منها وتكون لدينا قافلة، نلعب بها ساعة قبل أن تذهب إلى القمامة. سننشغل بعد ذلك بمراقبة النمل وهو يجر حبوبا إلى ثقوب صغيرة في أرض الفناء، أو ينقل بيوضه الصغيرة وقد فاجأه

الماء الذي غُسلت به الأرض، إلى مكان آمن. نراقب النملة وهي تمضي في طريقها، تصادف نملة أخرى فتتوقف لحظة ثم تتابع كل منهما طريقها. نتمنى لو فهمنا الحوار الذي جرى بين النملتين. أو نرى صفا طويلا من النمل، نبحث عن نهايته فنعثر على كومة من حبوب أو قطعة سكر.

مساء يعود الصبية يحملون حصيلة رحلتهم، فطريات تشبه درنات البطاطة ذات حلاوة باهتة، وأبصالا سكرية، وفي أحيان قليلة كان هناك الحماض، تلك الحبات القرصية، نضغطها فتنفقع بين أصابعنا، أو نمضغها في توجس. ما كنت لأستطيع أن أطمئن إلى أن ثمرة لها هذا الحجم الصغير وهذه الاستدارة يمكن أن تؤكل.

النهر

إنني أنحاز إلى الطفولة، في الثانية والثلاثين ولا زلت أعقص شعري في ضفيرتين، وأحلم بشاطئ صخري ونهر أدلي فيه قدمي، أؤرجحهما في الماء، وأسكن دقيقة فتعضني أسماك صغيرة. وأخوض في المياه التي لا تبلغ وسطي وألتقط حصاة بيضاء بديعة التكور. كان للحصاة البيضاء دائما سحر يجتذب إليها الأصابع. كل هذا ينتمي إلى الطفولة، حيث النهر مفروش بالحصى، شفاف لا يخفي أسرارا، صخور ناتئة وأسماك بالغة الصغر تطفو في ماء لا يزيد عمقه عن قدم، وأسماك أكبر قليلا تمرق في الماء الأكثر عمقا. أما الأسماك الكبيرة فلم أرها أبدا. لا بد أنها كانت لا تبتعد كثيرا عن وسط النهر، ذلك المكان الذي ما استطعت بلوغه.

كانت النساء يبحثن عن «بسطة»، دائرة من صخور مرصوصة إلى بعضها ترتفع فوق الماء، مستوية وراسخة، يجلسن فوقها. وما هي إلا ساعة حتى يسمع صوت المآجن ترتفع في الهواء وتهبط على ثياب مخضلة بالصابون أو «الكيل»، ذلك الطين المعطر برائحة الأراضي البعيدة الذي ينشر عبقه ما أن يبتل. كنا

نحن الأطفال نجلس على صخرة قريبة، نترك أقدامنا تتدلى في الماء حتى تشحب وتتغضن، أو نتجول على الأرض الحصوية، ننبش الرمل الهش بحثا عن ريزومات السعد. تلك العقد السود المكتنزة بالسكر والشذى، أو نتسلق الصخور فنبلغ سياج الحديقة. في مرات قليلة تسللنا من فتحات السياج إلى ممراتها المسورة بالآس. لشدما كانت تبدو واسعة مترامية الأطراف. وما أكثر ما يصادف المرء طفلا يصرخ. لقد فقد أمه وبيته إلى الأبد. سيأتي الليل ويمضي الناس، بينما يبقى هو وحيدا فيخرج إليه حيوان مخيف، واحد من تلك المخلوقات المريعة التي تتحدث عنها الحكايات ويفترسه. وتبدو الممرات ذات الخضرة والآس الذي اتخذ أشكالا هندسية أكثر قتامة. لا شيء يستطيع أن يضيء العالم إلا التعلق بطرف ثوب الأم. أما بوابة الحديقة فكانت تبدو قصية لا سبيل إليها، وما كنا نمر بها إلا ونحن ننحدر من الجسر متعجلين الوصول. وعند العودة نلتفت فنقرأ اللافتة البيضاء ذات الوجهين: «للرجال». إنها تُقلب على وجهها الآخر مرتين في الأسبوع، «للنساء» فتصبح أكثر ألفة. كان بإمكاننا دائما أن نشتري كومة من البطيخ أو «شمزية» كبيرة نحبسها بين الصخور تحت الماء فتبرد، ثم إذا حان موعد الطعام نضربها على طرف صخرة ناتئة فتنفلق عن حمرة مشرقة، وتتناثر حباتها السود البراقة. ما كان أحد ليحمل سكينا، فالبطيخ الأحمر لا يستطاب إلا حين ينفلق على صخرة بيضاء، نأكله فتتلطخ وجوهنا بالسائل السكري، فإذا انتهينا غسلناها بماء النهر.

كانت ثمة مناطق محرمة لا يسمح لطفل بالاقتراب منها، تلك هي المساحات التي تنشر فوقها الثياب المغسولة، عبقة، شديدة النصوع، تجف فتتطاير مثل رايات بيض، تدركها المرأة فتضع فوقها حصاة تبقيها على الأرض. نمضي صاعدين عكس التيار حيث يضيق الشاطئ ويصبح أكثر انحدارا. ليس ثمة أرض منبسطة مفروشة بالحصى بعد ولكنها صخور ناتئة نسير فوقها بحذر فيفاجئنا الماء بين الحين والآخر، ينساب بينها منحدرا ويضيع في ماء النهر.

أسماك

ها هو صبي آخر يمسك طرف صنارته، ينظر في الماء حيث يغوص الطرف الآخر للخيط، إلى جانبه طاس فارغة تنتظر أسماكا صغيرة يكون قد اصطادها عما قليل. نمر خلف الصبي، الطاس ليست فارغة تماما. ثمة ماء يبلغ منتصفها. ويعلق نظري بطرف الخيط. أرقب السمكة التي ستظهر فوق سطح الماء بين لحظة وأخرى. لكننا نكون قد ابتعدنا قبل أن تكون السمكة قد علقت بالشص، وقبل أن يكون الصبي قد حول نظره إلى الطاس إلى جانبه.

ما كنت لأعطى هذا الكنز، ولا كان يسمح لي بهذه اللعبة، فذلك شأن الصبيان وحدهم. ولا كنت أعرف أين يُشترى الشص، هذا الشيء السحري، فبقال الحي الذي نشتري منه كل شيء تقريبا لم يكن يبيعه. لقد غبطت الصبية دائما على هذه السعادة، سعادة أن يرتعش الخيط في أيديهم ويسحب على عجل فتضيء في طرفه سمكة صغيرة تشعل في النفس فرحا لا يطفئه إلا انتظار سمكة جديدة والإخفاق في الحصول عليها.

عند رقبة الجسر ليس ثمة حصى، لكنه رمل ساخن تغوص فيه القدم، وأكوام من البطيخ تلقيها الشاحنات فتثير عاصفة من الرمال. أحيانا تنتظم هذه الأكوام في مكعبات كبيرة، أو تنسرح في مستطيلات قليلة الارتفاع مثل أبنية راسخة. ما كنت لأحب هذا المكان بغباره الرملي وضوضائه وقد تركنا إلى يمينه الشاطئ المغسول بالضوء. عما قليل سنرتقي الجسر الثلاثي فننسل من رقبته الضيقة إلى ممر العودة. ذلك النظام الذي لم يخرق أبدا: ممر للمجيء وآخر للعودة، وفي الوسط شارع عريض تمر منه السيارات. فإذا بلغنا الطرف الآخر للجسر قذفنا إلى الطرف الأكثر حياة من شارع نينوى بأسواقه وحماليه، سياراته وشاحناته وضوضائه التي لا تهدأ.

لم أعد أرى الصبية وطاساتهم المليئة بالماء بعد ذلك، ولا خيوطهم الراعشة وانتظارهم القلق. لقد كبرت، وغاب كل ذلك عن الذهن، لكني أدرك أني ما أن ألقى في تلك الضوضاء، ما أن أرمى على شاطئ صخري يأتلق بالحصى حتى يتراجع الزمن إلى الوراء، وأعود إلى السن التي أحببت فيها كل هذه الأشياء. إنني ما استطعت أن أتحرر من تلك الرغبة، أن أصطاد سمكة واحدة على الأقل. لم يعد شراء شص مسألة عصية، فقد حصلت على بضعة شصوص، كنت أشتري واحدا كلما ظننت أننا ذاهبون إلى مكان فيه ماء، وأحمل أطعاما لا أستفيد منها لأن الوقت لا يتسع لصيد سمكة، أو لأننا لم نقترب من النهر.

إن النهر لا يمنح أسماكه بيسر. عشرون سنة ولم يمنحني واحدة من أسماكه الصغيرة. لكن أهوار الجنوب أكثر سخاء. الماء ساكن، وثمة أسماك تسبح في كل مكان، أسماك صغيرة وأخرى كبيرة يمكن مراقبتها من خلال الماء الشفاف. لا يحتاج المرء إلا أن يلقي بصنارته وهو يقف عند الجرف أو يجلس في مشحوف ينزلق برفق على سطح الماء. يستطيع عندذاك أن يختار السمكة التي يصطادها، هذه واحدة، وهذه أخرى، أما الثالثة فقد لبطت في قعر المشحوف ثم انقذفت في الماء، الرابعة كبيرة، ثم ها هي السمكة الثامنة. ثماني سمكات، يا لها من سعادة. لم يستطع أي من الصبية الذين كانوا يجلسون على ضفة النهر أن يصطادوا خلال الساعات الطويلة من الانتظار الصبور مثل هذا العدد. في سنة أخرى كان ماء الهور قد غاض، وفي سنة ثالثة كان بوسعنا أن نصطاد الأسماك الصغيرة ونحن داخل أحد بيوت البردي. لقد أترع الفيضان الأهوار بالماء فارتفع وانسل من خروم البردي وأغرق أرضية البيت. دعانا مضيفنا إلى الجلوس على طرف سرير تكوم فوقه الأثاث القليل للعائلة. راقبنا الأسماك وهي تنزلق من تلك الخروم إلى الداخل، أسماكا صغيرة ضالة تسلم نفسها للتيار فلا تلبث أن تخرج من الطرف الآخر للبيت. عشرون سمكة . . . ثلاثون، ما كانت لتثير اهتمام حتى الأطفال. وفي سنة رابعة فقدت اللعبة بهجتها. كنا قد اصطدنا سمكات كثيرة قد تدهش أبناء المدن، لكنها في نظر الصيادين سمكات لا ينتفع بها. «إنها تصلح وقودا ولا شيء آخر.»

لكننا ما اصطدناها من أجل هذا، ولم يكن في منزلنا العائم ما يوقد نارا فنشوي عليها تلك السمكات. حررنا السمكات الأخيرة من الشص وألقينا بها في الماء. ها هي تسبح مبتعدة وقد غسل الماء جرحها. تجرحني هذه القسوة. ما كان من حقنا أن نلهو بتلك الحيوات. إن هذه اللعبة التي كانت تعدني بسعادة عظيمة لتبدو لي بغيضة منذ الآن.

بيتنا

عند انعطاف الشارع تماما كان ثمة باب كبير من خشب عتيق ترصعه مسامير كبيرة سود، يدق بمقرعة حديد، ذلك كان بيتنا. إذا تجاوزنا القنطرة كنا في فناء كبير ذي حجارة ناتئة، تنفتح فيه أربعة ثقوب مشبكة بقضبان حديد، تلك هي نوافذ السرداب الذي ينقسم إلى أربع ردهات معتمة، لا يضيئها إلا النور الساقط من تلك النوافذ. حول الباحة تقوم أروقة على أعمدة من الرخام، يقطعها سلمان متقابلان أحدهما لصق القنطرة تماما، يقود إلى العلية ثم ينعطف إلى السطح، أما الثاني فيقع قبالته تماما ويقود إلى سطوح منخفضة متصلة تنبت على أرضها وستراتها الطحالب والغبيرات فتلونها بخضرة باهرة، في صدر الساحة يقوم الايوان، بناء مرتفع من طراز فريد، تسطع ألواح الرخام ذات العروق الزرق في أرضيته وجدرانه، وترتفع حتى يتقوس الجداران المتقابلان وينعقدان في سقف أبيض. في صدره تماما وحيث تنتهي ألواح الرخام، ثمة مستطيل حفرت عليه كلمات قليلة بخط زخرفي، خط جميل ذي انثناءات وتداخلات، ما استطعنا حل رموزه أبدا، غير أننا قرأنا السنة بمشقة وطالما جمعنا وطرحنا

فانتهينا مرة إلى أن الدار بنيت قبل سبعين سنة ومرة قبل تسعين، ولعلنا أخطأنا في الحالتين، فما كنا نعرف في أي سنة هجرية نحن. وقد أردنا أن نكون أوفياء لأسلافنا فكتبنا على مرمر الطاقات الكبيرة العديدة أسماء أجدادنا السبعة بالطباشير. لكن ما كان لذلك المكان ذاكرة. ستقوم أمي بالتنظيف بعد أيام وتمحو ما كتبناه. وإذا لم نستعن بأبي التبس علينا تسلسل الأسماء فسبق خليفة سليما وكان ينبغي أن يعقبه. أمي لم تكن تقدم لنا عونا في هذا التقصي، فإذا سألناها إن كنا قد وضعنا خليفة في مكانه الصحيح بين الأسماء لا نحصل منها على جواب، لكنها تقول بدلا من ذلك: «لقد رحل في تجارة إلى تركيا، لكنه لم يعد إلا بعد سنوات طويلة. حين دخل بيته وجد شابا لا يعرفه في البيت فأخذه الغضب. لكنه ما لبث أن عرف أن ذلك الشاب هو ابنه الذي لم يكن قد ولد بعد يوم رحل.»

الشبابيك المتقابلة في جهتي الايوان ضيقة ذات أقواس. ولم تكن للغرفة التي كنا نعيش فيها رفوف تزدحم بالخزف الصيني، صحون وكاسات كما عند الجيران، إنما كانت لها جدران بيض وباب خشبي ثقيل، إذا جاء الشتاء علق خلفه باب آخر نصفه الأسفل من خشب مدهون بلون فستقي ونصفه الآخر من زجاج. كنا نستطيع من خلاله أن نراقب المطر دون أن نتعرض للبرد. وكنا نلصق أنوفنا بزجاجه فتبدو من الطرف الآخر بيضاء فطساء مضحكة.

في أرضية الغرفة، ذلك الشريط المنخفض المرصوف

بالمرمر، وضعت منضدة سوداء من خشب الجوز، كانت هدية من صديق أبي الأرمني، أوانيس. لا أعرف متى حلت هذه المنضدة محل الخزانة الخشبية التي امتلأت ذات يوم بالجوز والقضامة والزبيب، وعبقت برائحة أوراق الغار، لكنها ظلت هناك سنوات طويلة. تحطمت المنضدة الأخرى، ولم يبق من الكراسي ذات القماش الأحمر الموشى بخيوط من حرير ذهبي اللون أثر، لكن تلك المنضدة بقيت هناك في الزاوية قوية راسخة سنة بعد أخرى. كانت أمي تعتبرها دليلا على متانة تلك الصداقة. إلا أن ما كان يقرب الرجلين لا علاقة له بتلك المنضدة. لم يكن أوانيس نجارا وحسب، ولكنه صانع أعواد ماهر أيضا. لم يمتلك أبي عودا، إلا أنه ما كان يخفي شغفه بهذه الآلة. لقد اختفى منذ وقت طويل الغرامافون الذي كان له بوق يشبه زهرة لبلاب عملاقة وسكتت تلك الأصوات الغريبة المفرطة في النعومة التي كانت تنبعث منه. ورغم أن أبي لم يكن ليجد الوقت لشيء آخر غير العمل الذي يوفر به لقمة الخبز لعائلته الكبيرة إلا أنه لم يكف يوما عن الاهتمام بالشعر والموسيقى. رافقته مرة في زيارة لصديقه النجار في دكانه، قدم لنا شايا بالليمون، وتحدث مع أبي طويلا عن عود معلق على الجدار. أما أنا فقد قضيت الوقت أراقب عربات العيد تمر في الشارع أمام الدكان، عربات مكتظة بالأطفال، زينت رؤوس خيولها بزهور من ورق.

لغرف الدار أسماء فالغرفة المقابلة هي «البيت الكبير»، غرفة واسعة ذات أرض ترابية. أذكر في غير وضوح براميل من التوتياء

وضعت فيها، وكوائر ربما امتلأت برقاق الخبز. وفي داخل البيت الكبير باب ينفتح على الخزانة، غرفة ضيقة شديدة الاستطالة، أرضها وجدرانها من رخام، لا شقوق ولا ثغرات، لكأنها علبة محكمة. أعرف من اسمها أنها كانت يوما مخزنا للمؤنة وأتمثلها مليئة بأكياس القمح وخصاف التمر. أزعجني أن أعرف أنه كان لها يوما سلم يقود إلى طابق ثان يماثل الأول في إحكام بنائه. لم أر ذلك السلم، لكني تسلقت الجدار إلى سطح تلك الخزانة الذي كان يخبئ لي مفاجأة عظيمة. مثل كل الأماكن المهجورة كانت هناك الغبيرات وأعشاب لم تمتد إليها أصابع، سنابل جوفاء وواحدة من تلك الزهيرات البرية الصفراء تنهض وحيدة ومزهوة وسط هذه الخضرة.

القمريتان على طرفي الايوان سكنتهما أسراب الحمام وبقيتا سرا مغلقا، لا ينكشف حتى حين يطير الحمام فجأة، وتضج العصافير محومة حول الشقوق القريبة منه، حيث تبني أعشاشها. نسمع من يقول: لا بد أن حية قد هاجمت الطيور. إلا أن أحدا لم ير هذه الحية ما دام لم يدخل القمريتين أحد. مرة في السنة يطرق رجل الباب ويقدم عرضا لتنظيف القمريتين. يسند سلمه الطويل إلى الجدار ويختفي في القمرية ساعة، ثم يهبط بكيس امتلأ بذرق الحمام، يدفع ثمنه ويمضي.

حين انهدم البيت الكبير وجدنا طريقا إلى إحدى القمريتين عبر السطح. واتخذنا منها بين حين وآخر مخبأ للعب. كانت تشبه

مغارة عميقة، تكاد رؤوسنا تمس سقفها. ومنذ أن انكشف لنا سرها أصبح العثور على بيض في الأعشاش أكثر ندرة.

في أقصى الفناء مستطيل ترابي تنبثق منه شجرتا التوت العظيمتان، شجيرة عنب، وشجرة رمان ما كانت ثمراتها القليلة لتصبح بحجم الجوزة حتى يغزوها نمل أسود بغيض الرائحة، كان يستوطن تلك الشجرة وحدها. عبثا حقنتها أمي بأسمدة عند الجذور فما زادت ثمراتها على الخمس، ولا كبرت عن حجم الجوزة.

تحت هذه الأشجار حفرنا، أختي وأنا، سواقي ورسمنا حدودا، وأتينا بعشبة أو نبتة كانت قد انبثقت توا من بذرة بطيخ، زرعناها في حديقتنا، ولكن ما كان ينتصف النهار حتى تكون قد ذبلت.

بين حين وآخر كنا نعثر عند شجرة التوت العظيمة على مظلات صغيرة، تدهشنا بغرابة شكلها وانتظامه، نحاول قطفها، فتسقط المظلة ولا يبقى في أيدينا سوى ساق هشة شاحبة. نلتقط المظلة فتتحول بين أصابعنا إلى عجينة لزجة. سننتظر وقتا طويلا قبل أن نعثر على هذه الفطريات مرة أخرى.

شجرة العنب تصنع في الطرف الآخر قنطرة عند باب الغرفة الوحيدة هنا: «بيت الشعلة». لقد كانت ذات يوم مليئة بالحطب وأكياس من قطع الخشب الصغيرة التي تفرزها المعامل. كنا نصعد إلى سطح الغرفة فيمكننا عندذاك أن نأكل ثمرات التوت من أكثر الأغصان انخفاضا، أغصان تلامس السطح أو ترتفع عنه قليلا.

وفي تلك الغرفة صنعت أمي لنا خبزنا في مرات قليلة، فوق صاج يستريح على الأثافي. الوقت مساء، والمطر ينهمر راعدا ثقيلا. لقد امتلأت الغرفة بالدخان فخطفنا أرغفة الخبز وركضنا إلى الايوان لنلتهمها هناك ونتعرف فيها مرارة هي مرارة البقع المشبعة بالدخان. لم تعد تلك الغرفة موجودة بعد ذلك، وانهدم جانب من الرواق الذي يتصل بها فتمدد عمودا الرخام على الأرض وتحولا إلى حصانين ركبناهما بين حين وآخر، أو جعلناهما أسيجة لبيوت وهمية. أما ذلك الشريط الترابي الذي خلفه الرواق المنهدم فقد تحول في سنوات لاحقة إلى حديقة ملونة تزدهر بمنقار الطير والكلبهار والقرنفل. ما كان ليستطيع أن يفعل ذلك غير أمي.

الحجارة

الحجارة هي سيماء تلك المنازل القديمة، حجارة تشي بثراء زائل. لقد كانت قصورا تلك المنازل التي تعدد مالكوها وساءت بهم الحال. منزلنا هو أحد منزلين متلاصقين هما ميراث جدي. في كليهما وضعت الحجارة أكواما ورصت جدرانا. إن ما ينهار لا يعاد بناؤه، إنما تذهب حجارته إلى الكور، أو ترص في زاوية من الزوايا البعيدة لساحة الدار. بين حين وآخر نعود من اللعب فنرى زائرا قادما من البادية، مضطجعا في الايوان، يتحدث مع أمي عن بيع البيت. إنهم يتحدثون عن ذلك منذ عشرين سنة ولم يتفقوا. ستمر سنوات، وسيتابع هؤلاء الأعمام زياراتهم، ويتحدثون عن ذلك الميراث، ثم سيأتي ذات يوم أولادهم وربما أحفادهم وسيتحدثون أيضا عن ذلك البيت الذي كان يوما مثل قلعة شامخة، ولم يبق من بهائه سوى القليل. سيلتقون مرة كل بضع سنوات ويتحدثون عنه من جديد ولن يتفقوا. لن يبقى من ذلك البيت سوى أرضه وشجرتي التوت، لأن أحدا لن يجرؤ على قطعهما. حين قلمت أغصانهما آخر مرة أثار ذلك غضب الجارة، إنهما لم تعودا شجرتين وإنما تاريخا. إلا أن أحدا لن ينجح في

تصفية هذه التركة. عدد الورثة يزداد من جيل إلى جيل، ويصبحون غرباء، بعضهم لا يعرف بعضا، وليس ثمة من يملك الصبر ليبحث في دوائر التسجيل عن أوراق عمرها مائة عام ويعيد إليها النظام. وخلال ذلك ستتحول غرف وأروقة أخرى إلى حجارة. لقد صنعت هذه الحجارة سترة لأحد أروقة الدار فتحول إلى غريفة اتخذت مطبخا. كانت حجارة كبيرة منتظمة اقتطعت من الجبال وألواح مرمر ذات عروق زرق تنتظم فوق بعضها تاركة شقوقا وثغرات يمكن أن تدخلها اليد حتى المرفق أحيانا. وكانت هذه الشقوق مخابيء لكنوزنا الثمينة. كنوز لا يحصل عليها المرء إلا مرة واحدة في حياته.

ذات مرة أعطتني أمي قطع نقود عثمانية، قطعا خفيفة ذات نقوش غامضة، فقد نحاسها بريقه وشابه بعض اسوداد، كانت هذه النقود قد ادخرت أطول مما ينبغي، ثم لم تعد تساوي شيئا. لم تكن تلك النقود فيما أحسب سوى قطع صغيرة، ما كانت لتشكل ثروة رغم كثرتها. غير أنها كانت بالنسبة للطفلة التي كنتها كنزا لا يساويه كنز. خبأتها في واحد من تلك الشقوق. كنت أمد يدي عبر الشق وأخرجها لألعب بها بين حين وآخر. مددت يدي ذات يوم فلم أجدها. لقد اختفت بصورة غامضة. ثمة أشياء ثمينة أخرى ابتلعتها الحجارة؛ إبريق من الفضة ذو نقوش، شمعدان كبير من الخشب لم يعد ينتفع به، وخنجر نادر ذو قبضة مرصعة، واحد من تلك الأشياء القليلة التي كانت تمثل أمامنا بأبهة، تشي بتاريخ ذي شأن، تاريخ كنا نجهل تفاصيله. كان هذا الخنجر لأبي، وقد

ظل سنوات يحتل مكانا خاصا في درج سري في خزانة الملابس، هذا المكان الأثير الذي ما كان يدخله إلا ما له أهمية خاصة: النقود والأسلحة والأوراق المهمة. كان فيه كيس لرصاصات ما أطلقت أبدا. كنا نخرجه خلسة، نفرغ الرصاصات ونتفحصها. وقبل ذلك بزمن بعيد كان لأبي مسدس تدور فيه اسطوانة ذات ثقوب. ما رأيت ذلك المسدس إلا وقد انتهى إلى صندوق للحدائد والمسامير. وأما الرصاصات فقد اختفت من الخزانة السرية بعد حين، وبقي الخنجر. كان أبي شديد الاعتزاز به، عظيم الحرص عليه. وقد أحببنا هذا الخنجر بدورنا. كنا نستقرئ الماضي في تلك الثنيات في مقبضه وفي ذلك الأخدود الذي يتوسط نصله ويوسمه مثل بذرة نبتة. في أيام الخوف ابتلعت البئر كثيرا من الكتب، ودفنت كتب أخرى في أرض السرداب. وكانت أمي تخاف كل ما يسمى سلاحا، رغم أن ذلك الخنجر لم يعد أداة للقتل، ولم يستخدم أبدا لما صنع من أجله ذات يوم، وربما لم يفكر صانعوه بأنه يمكن أن يكون هذه الأداة. فما حاجة القتل إلى أن يرصع ويزين؟

خافت أمي فأودعت الخنجر بين الحجارة التي كانت قد ملأت إحدى ردهات السرداب. لكن أيام الخوف امتدت أطول مما ظنت، وما عادت إلى ذلك الخنجر أبدا.

وتحت الأنقاض كانت ثمة حياة تجري بعيدة عن أبصارنا، ينكشف لنا جانب منها في عظاءة تخرج رأسا صغيرا من ثغرة بين الحجارة التي ازداد لونها بياضا في ضوء شمس الظهيرة، يملؤنا

الرعب، ربما كانت أفعى، لكنها تنطلق فجأة من مكمنها، تسطع في الضوء وهي تمرق كالسهم لتختفي في ثغرة أخرى فيذهب عنا الخوف ويعود الاطمئنان إلى قلوبنا. ما كنت لأحب هذا الجلد البراق وهذه الرشاقة، لكننا كنا قد تعلمنا أنها حيوان لا يستحق البغض. بين حجارة السرداب دويبات صغيرة رمادية، كان يسلينا مسلكها. لا نكاد نلمسها بطرف عود ثقاب أو غيره حتى تتكور وتتحول إلى خرزة صغيرة، ندحرجها فلا تنفتح. نمكث نراقبها بعضا من الوقت، فإذا اطمأنت إلى زوال الخطر انفتحت ومضت في طريقها من جديد.

من الحجارة أيضا نقرت المدينة أجرانها ومزملات مائها ورحاها. كان لنا اثنان من الأجران، جرن صغير ما أكثر ما دق فيه اللحم قبل أن ينبسط أقراصا، أما الكبير فما كان يستعمل إلا نادرا. حين تنفذ المؤنة قبل مطلع الصيف، كان يمكن ملء الجرن بالقمح، يدق بصبر حتى يتكشأ. لم يلبث هذا الجرن أن أهمل فلم يعد سوى حجارة استلقت طويلا في زاوية من ساحة الدار، حتى اتخذت منه يوما مخبأ لأشعاري، أشعار صبية في الثالثة عشرة حفظت عن ظهر قلب كل ما يلقن في المدرسة من الأشعار وكل ما حوته كتب المطالعة المدرسية. انفطر قلبها حزنا «لليتيم في العيد»، لكنها ما استطاعت أن تقدم جوابا مقنعا للسؤال الذي ظل يتكرر سنة بعد أخرى: «كيف قضيت العطلة الصيفية؟» ولا أفلحت كثيرا في وصف يوم ممطر. كان الأمر يبدأ هكذا على الدوام: «خرجت في الصباح، كانت السماء ملبدة بالغيوم والمطر

ينهمر غزيرا، وكانت الشوارع تغطيها الأوحال. رأيت الناس يحملون المظلات ويمضون مسرعين.» هنا تبدأ المعضلة، لقد قلت كل ما أستطيع قوله، ولكن لا بد من كتابة صفحتين أو ثلاث. وتبدو لي إضافة أي جملة أخرى أمرا مستحيلا. ثم أن ما كتبته برمته لم يكن سوى محض خيال، فأنا لا أذكر أنني رأيت ناسا يحملون مظلات، مظلة واحدة سوداء كانت لأبي، وإذ لم يعد ينتفع بها أخذتها أمي إلى صهرها فصنع من هيكلها المعدني مغازل رشيقة للحياكة. وصورة الأوحال أيضا لم تكن رغم أنها جديرة بالتصديق سوى كذبة، فشارعنا الضيق قد رصف بالاسفلت منذ زمن بعيد، وكان على أبي أن يدفع بالتقسيط كلفة التبليط التي ثقلت عليه، فقد كانت جدران بيتنا الموازية للشارع أطول كثيرا من جدران بقية البيوت. أما شوراع المدينة العريضة فقد كانت تبدو بعد المطر أكثر نظافة. ينهمر المطر ساعات متواصلة ثم يتوقف فلا يترك سوى الاسفلت المغسول. والعطلة الصيفية كانت تبدأ وتنتهي في دفتر الإنشاء برحلة طويلة، وما حصلت المعلمة إلا على جواب واحد يتكرر كلما تكرر السؤال، أي القولين تفضلين: قول أبي العلاء المعري «فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا» أم قول أبي فراس الحمداني: «إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر».

الحجارة أيضا

لم يكن أحد ليجهد نفسه ويأتي بعمال يهدمون جدارا أو يرممون غرفة. كانت جدران وغرف تنهار بين حين وآخر. نسمع دويا فنصيخ السمع برهة لنتبين مصدره، ثم نستأنف حياتنا. لا تمر ساعة حتى يكون الأمر قد أصبح خبرا باهتا يلقيه أحد المارة دون اكتراث: «إنه بيت فلان». قلما يعبأ أحد بالذهاب وإلقاء نظرة، فهو أمر عادي يحدث من حين لآخر. ثم بعد أيام أو أسابيع يأتي رجل يلقي نظرة على كوم الأنقاض، يتبادل رب البيت معه حديثا مقتضبا، وفي اليوم الثاني تأتي الحمير لتحمل تلك الحجارة وذلك «الخرشان» في غرائر على ظهورها. يخرج الحمار في النقلة الأولى يرافقه الحمّار. وفي المرة الثانية يكون قد عرف طريقه. يمضي متمهلا غير ساخط، ثم يعود غير مكترث وقد أفرغ حمله. كنا نرقبه وهو يمضي ثم ننتظر عودته فلا يخيبنا. ما كان ليخطئ أو يتأخر. فإذا انتهى عمله رافقه صاحبه فلم يعد. على هذا النحو كانت تتحول غرف كبيرة إلى مساحات خالية تنضاف إلى ساحة الدار فتزيدها سعة.

ذات يوم انفتحت في ساحة الدار هوة، فتكومت الحجارة في

الطرف القصي من السرداب. وشيئا فشيئا صارت هذه الهوة تتسع وكومة الحجارة تحتها تزداد ارتفاعا. وأصبح بوسعنا أن نقفز فوق هذه الحجارة، ثم نرتقي الدرجات العريضة إلى باب السرداب. وكثيرا ما كنا نسقط في هذه الهوة ونحن نلعب. وحين يكون الوقت قد قارب المساء، فإن السرداب المظلم يخيفنا. كنا ما أن تلمس أقدامنا الأرض حتى نمرق باتجاه الباب الذي نعرفه تماما دون أن نلتفت. وإذا اشتد بنا الخوف أغمضنا أعيننا فلا نرى تلك الأشباح التي كانت تترصدنا ما أن يحل الظلام. كنا نعرف أن التفاتة سريعة تستطيع أن توقظ كل من سمعنا عنهم من ملائكة وشياطين. وكنا نخافها معا. لقد اتسعت هذه الهوة أكثر فأكثر، وارتفع كوم الأحجار تحتها. تهدم جانب من الرواق، نقلنا حجارته إلى تلك الثغرة. ذات يوم تحولت تلك الهوة إلى حديقة صغيرة أزهرت فيها شجيرات الورد وبنفسجات الثالوث التي كانت تشخص إلينا بعيونها الملونة في دعة، دم العاشق، قرنفلات بيض وأخرى داكنة الحمرة. كانت حياة يانعة تنبثق من تلك الهوة، من تلك الحجارة وذلك التراب.

كانت ثمة أشياء تنهدم على الدوام، وكانت أمي تمتلك موهبة فذة في ترميمها. ما أن يتهدم شيء حتى تمد إليه يدها فتعيد إليه الحياة. كانت أثوابها القديمة تتحول إلى أثواب جميلة لنا، والغرف المنهدمة إلى حدائق مزهرة. لقد دأبت تحارب الخراب بعزيمة لا تفتر ثلاثين سنة، أربعين سنة، بأكثر الوسائل توضعا.

الكنز

حين انهدم البيت الكبير، غرفة الكوائر تلك وبراميل المؤنة، ورأينا جرار الفخار التي كانت تملأ الفجوة بين السقف والسطح استيقظ فينا نحن الأطفال حلم العثور على كنز. كان الكبار يتناقلون قصصا عن رجل عثر على كنز، قارورة مليئة بالذهب، إذ كان يهدم جدارا في بيته أو يحفر حفرة. وكان هذا لا ينتمي إلى السحر أو الأسطورة، فهذه البيوت القديمة سكنها ذات مرة أجداد أثرياء، وما كانوا ليجدوا مكانا لحفظ كنوزهم أفضل من الجدران الصماء التي لا تشي بالسر. ولكن إذا فاجأهم الموت يكون الكنز قد ضاع في صمت الجدار فلا ينتفع به. كنا نروز الجدران، ننقر عليها بأصابعنا ونفحص أرض الدار فلعلنا نعثر على ما يشي بمكان الكنز. لعل أجدادنا الطيبين تركوا لنا واحدة من تلك القوارير الملأى بالذهب. لكننا بدلا من قارورة الكنز وجدنا عشرات من قوارير الفخار، شربات ذات أشكال غريبة، جرارا دون عرى وأباريق مسدودة الفوهة إلا من ثقوب صغيرة لا ينفذ منها إصبع اليد، تملأ الفجوة التي كانت مستورة حتى الآن. كنا نحرك الواحدة منها ونصغي إلى خشخشة شيء ما في داخلها، نكسرها

فلا نجد إلا كسر حجارة وتراب. لم يبحث أي من الكبار عن الكنز. ربما كانوا لا يصدقون الحكايات التي كانوا يتناقلونها أو لعلهم يعرفون أفضل مما نعرف نحن أن تلك الجرار ما صنعت إلا لتملأ ذلك الفراغ بين السقف والسطح الذي يستوي فوقه دون أن تثقل البناء، وأن الكنز لا يخبأ في السقف، في أصل البناء، ولا يمنح سره للبنائين. وربما لم يعد لديهم الوقت للحلم. نحن الذين لم نعرف بعد الحد الذي ينتهي عنده الواقع الصلب، كسرنا عشرات الجرار فما عثرنا على شيء وانتظرنا الصبية التي نزلت إلى سرداب المنزل لتأتي بشيء من السمن فوجدت براني السمن والعسل تفيض بما فيها. ملأت الأواني الفارغة ولم تعرف ما تفعل بالسمن الذي ظل يتكاثر ويفيض فصاحت بأعلى صوتها: «يا أمي تعالي! تعالي أنظري، تعالوا جميعا.» وإذ وقعت العيون على البراني سكن كل شيء وتوقف فيضان السمن والعسل. لو أنها فقط كتمت صرختها، إذن لأمكنها أن تغرف من ذلك الكنز ما تشاء، أن تملأ منه وتملأ فلا يتوقف دفقه. لكنها حين أطلقت صرختها ضيعت كل شيء. ونشعر بثقل الذنب كأننا نحن الذين لم نقو على الصمت.

غزال

نستيقظ في الصباح فنرى غزالا مربوطا في الرواق، حجلا في قفص أو سربا من القطا يتبختر في فناء الدار. الكلب السلوقي ينام في زاوية من الرواق لا يثير فضولنا، لكنه ذلك الغزال الذي يندر أن يصادفه المرء في المدن. لقد عاد أبي من رحلته القروية. لا بد أن ذلك كان عند الفجر، وكنا لا نزال نياما. لم تشغلني القرية إلا قليلا، ذلك المكان البعيد الذي يستطيع المرء فيه أن يصطاد القطا في الحقول. ولم يتحدث أبي عنها، ربما كنت أصغر سنا من أن أكون طرفا في حديث. كانت القرية بالنسبة لي حقلا واحدا واسعا بلغ عشبه ذروة نموه وبدأ يميل قليلا إلى الاصفرار، حين يقلق زائر بشري هدوءه يهب سرب من القطا طائرا على ارتفاع قليل. على الزائر إذن أن يمضي في الحقل بحذر فلا يفسد الأعشاش أو يدوس البيض الذي تركته هذه الطيور وقد أفزعها هذا الغريب. في أحيان قليلة كان أبي يأتي معه بسلة من هذا البيض الصغير المرشوش بنقط بنية. ولكن كان يمكن شراؤه من الباعة المتجولين في مواسم معينة، البيضة بفلسين. ترتاب ربات البيوت أحيانا في أنه قد يكون فاسدا، فيتفق البائع معهن على بيعه مكسورا. تأتي

المرأة بطاس وتكسر البيضة بعد الأخرى، البيضة الفاسدة لا يدفع ثمنها.

نقترب من الغزال في حذر، ننظر في عينيه السوداوين فلا نقرأ فيهما الألفة التي اعتدناها في عيون القطط الصغيرة، نتأمل شعره القصير الأغبر، ندنو منه فيبتعد، ولا نجرؤ على لمسه. نمضي جانبا من النهار في محاولات يائسة لكسب صداقة هذا الحيوان الذي يبدو أقل اكتراثا بنا، ثم ننصرف إلى اللعب وقد أدركنا لا جدوى محاولاتنا.

الكلب السلوقي الذي رافق أبي في رحلات صيده، أقام في البيت طويلا، حمل مرة أو مرتين إلى مكان ما في المدينة، لكن أمي وجدته في الصباح التالي يقعي أمام الباب.

الثلج الأخير

تظهر في الأفق طلائع سحابة بيضاء، غلالة لا تلبث أن تمتد وتنتشر فتغطي السماء بأكملها، إنه الجراد يأتي دون انتظار، نهرع إلى السطح فنعثر على عشرات منه على أرض السطح وستراته. عندما تأتي سحابة الجراد يصبح اصطياد واحدة منها سهلا، فبعضها يهبط ليستريح قبل أن يستأنف الرحلة. من أين كان يأتي ذلك الجراد وإلى أين كان يذهب؟ تلك أسئلة ما كانت لتشغل بال طفل في السابعة. نمسك بالجرادة برفق ونعقد حول عنقها بحذر شديد خيطا نمسك طرفه الآخر، تتدلى الجرادة المربوطة في طرف الخيط في الهواء فتنشر أجنحتها، تشرع في طيران لا يبتعد بها كثيرا. نراقبها وهي تكشف لنا أسرارها، فنرى أجنحتها الشفافة التي تختفي وراء أجنحة صلبة لها لون تراب الأرض. كانت بينها جرادات ذات أجنحة وردية، يصعب العثور عليها إلا في مواسم الجراد تلك. وكانت تلك الأجنحة الملونة الخافقة كفيلة بأن تدخل البهجة في قلب أي طفل. الجرادات الخضر الصغيرة لا تأتي مع أسراب الجراد، لكنها تستوطن الحدائق. لا تستطيع خضرتها الباهرة، خضرة الأوراق الغضة، أن تضلل طفلا. لكنها

ما كانت برطوبتها اللزجة لتغريه باصطيادها. كنا نراقبها وهي تقفز من موضعها وتختفي في مكان آخر بين الأوراق الخضر، نبحث عنها فما نكاد نكشف عن مكانها حتى تقفز من جديد. بعد سنوات عرفنا من أين يأتي ذلك الجراد الذي سيغزو الحقول ويقضي على القمح، قمحنا، قبل أن ينضج. أسراب الجراد انقطعت بعد ذلك، وانقطعت أيضا ثلوج الشتاء الوفيرة. كنت في الخامسة أو السادسة حين سقط الثلج آخر مرة، غطى ساحة الدار والسطيحة أمام العلية. راقبنا الندف البيضاء تبقى معلقة في الهواء، تتأرجح ثم تسقط شيئا فشيئا. فتيات الجيران الأكبر سنا ملأن من تلك الكتلة الهشة البيضاء حقاقا حلينها بالسكر، راقبناهن بدهشة وهن يلتهمنها. أردت أن أتعرف على طعم الثلج فأخذت قليلا منه وضعته في فمي فما عرفت له طعما. بعد أيام كانت كتلة هائلة من الجليد، تشبه صخرة عظيمة، تسد الطريق على بعد أمتار من بيتنا ولا تترك إلا فسحة صغيرة للعبور.

لم يسقط الثلج بهذه الوفرة بعد ذلك ولم يبق لنا إلا مزن البَرَد نتلقاه بأكفنا فتذيبه حرارتها، والصقيع يمنح الأرض بياضه في صباحات الشتاء الباردة، والماء الذي تحول إلى جليد يتكسر تحت أقدامنا ونحن في طريقنا إلى المدرسة.

إبن الأثير

إبن الأثير: ممر طويل ذو أعمدة، تنفتح عليه غرف الدرس. في نهايته تماما الصفوف الأولى، كلما عبرنا بابا تقدمنا سنة. وفي طرفه الآخر، في تلك الغرفة الواسعة التي تنهض عليه في زاوية قائمة، وتفتح شبابيكها على الساحة يدرس التلاميذ الكبار، تلاميذ الصف الثالث. فإذا انثنينا يمينا صادفنا ذلك الباب المتخفي الذي يقود إلى غرفة مستديرة، غرفة المديرة والمعلمات. كانت الغرفة تبدو من الخارج أكثر تمايزا باستدارتها وتماسها مع ذلك الخط الطويل الذي هو غرف الدرس المتراصة المتشابهة. تلك كانت مدرستي.

«الباب الخشبي إلى اليمين، والنوافذ الثلاث إلى اليسار. الباب إلى الجهة اليمنى، أما النوافذ فإلى اليسار. هل فهمتم هذا؟» وهكذا تعلمت اليمين واليسار فما استطعت أن أعرفهما بعد ذلك ما لم أول وجهي شطر الجنوب، أتمثل تلك الغرفة، وأبحث عن الباب أو الشباك. هذه مشقة حقيقية أصادفها بين حين وآخر، فإذا ركبت سيارة كان علي أن أحتاط قبل أن أقول للسائق إنعطف يمينا

أو يسارا. لم يزل باب الصف بخشبه النظيف اللامع ماثلا هناك، أعود إليه فيحدد لي يميني وشمالي.

الساحة الكبيرة يحيطها سور مضلع تنبت خلفه أعشاب صغيرة ترتفع في الربيع فتنعقد زنارا أخضر يحيط الساحة. وفي هذا الموسم تنبثق من هذه الأعشاب سنابل جوفاء خشنة ذات خضرة باهتة لا تلبث أن تتحول إلى بياض. كان الأطفال يقطفون هذه السنابل، يلفون حولها أصابعهم فلا يبدو منها إلا طرفها، يدخلونها في مناخيرهم، وبكف مفتوحة يضربون على القبضة التي تمسك بالسنبلة: «كوكو .. كوكو .. طلع دم»، فإذا أخرجوا السنبلة بعد ذلك كان طرفها ملوثا بالدم، دم طري شحيح. ما جربت هذه اللعبة إلا مرة. كنا ننتشر في الساحة في درس الرياضة، مددت يدي إلى إحدى السنابل خلسة، وأدخلت طرفها في أنفي، الضربة الأولى والثانية ثم تدفق الدم. تخلصت من السنبلة وركضت مذعورة إلى صنبور المياه. كان الدم قد أغرق ثيابي. أسرعت المعلمة إلي، ودعيت أختي الكبرى من غرفة الدرس. لقد اقتضى وقف النزيف نصف ساعة من الوقت وعودة مبكرة إلى البيت.

إبن الأثير: شارع ينسفح في مساحة شاسعة عند طاق يقوم على أعمدة أربعة. «هذا هو النصب التذكاري لابن الأثير.» قالت رفيقتي وقد بلغنا نهاية الشارع، واحد من الشوارع القليلة الفسيحة التي تقسمها طولا جزيرات مزروعة بالدفلى. قالت رفيقتي: «ذات مرة انبثقت في واحدة من هذه الجزيرات في الشارع، أمام

المدرسة تماما عين ماء صغيرة بحجم قطرة المطر. غير أن الأطفال أغلقوها بحصاة أو حجارة، ولم تعد ثمة عين. «لماذا؟»، قلت في أسف.

«عين ماء في الشارع، أين يمكن أن يذهب ماؤها؟»

حلمت بتلك القطرة تتسع وتتسع وتصبح نبعا يتدفق ماؤه منسفحا على أرض الشارع، منحدرا إلى يساره حيث تنحدر الأرض ثم تستوي. حلمت أننا نغرق أقدامنا بالماء ونحن نغادر المدرسة، نغسل وجوهنا ونتراشق بالماء، وشعرت بالحسرة. مرتين أو ثلاثا خالفنا تعليمات أمهاتنا الصارمة، وأنسللنا أنا ورفيقة لي إلى المقابر التي تمتد على الطرف الآخر من الشارع، لم يكن لذلك المكان وحشة المقابر، وإنما بهاء الربيع. كانت خضرة نضرة تغلف الموت فلا تشم رائحته إلا في أماكن متباعدة حيث ينمو الحرمل. نجلس أنا ورفيقتي على العشب، نقطف زهيرات البيبون، وننتقي من أوراق الخباز أكثرها نضارة. هذا شيء نافع بلا ريب. غير أننا كنا نلقي بها بين الأعشاب ونحن نعود إلى البيت. ما كنا نستطيع أن نحملها معنا فتفضح ذنوبنا.

في الطريق تحدثني رفيقتي عن سعلاة تقيم في علية دارهم. تخبرني في ذعر أنهم يلقون إليها الطعام كل يوم، لكنهم لا يستطيعون دخول تلك العلية. لم تكن السعلاة موجودة قبل ذلك إلا في في الحكايات. وإذن فثمة سعلاة حقيقية. لكن أن تسكن في تلك العلية، فذلك ما داخلني فيه الريب.

الطاحونة

من الطرف الآخر لشارع ابن الأثير ينسل فرع عريض، ينحدر مارا بمقابر معشبة، يتمهل قليلا عند منعطف تقوم عنده طاحونة بخارية؛ «مكينة رمو»، كان هذا اسمها. كنا قبل أن نبلغها نمر بقبة صغيرة، غريفة في الطرف المقابل من الشارع لامرأة كانت تقرأ صلواتها فوق رؤوس الأطفال المصدوعين والخائفين ليذهب صداعهم أو خوفهم، لقاء قطعة نقود صغيرة، ربما عشرة فلوس. كانت بعيدة عن الأحياء تفصلها عنهم مئات الجثث تنام في قبورها، يحولها الخوف أشباحا تطوف بالمكان ما أن يحل الظلام. إنها هنا لتطرد هذه الأشباح بصلواتها.

على بعد أمتار، عند منعطف الشارع تماما، كان يمكن سماع تدفق المياه. فإذا تقدمنا بضعة أمتار صادفنا عشرات من تلك الحشرات العصوية غشائية الأجنحة، ثم يكشف لنا «السيب» عن وجهه القبيح، لا تزينه إلا عشرات اليعاسيب تطير فوق مائه. في هذا المنحدر العميق تقذف المدينة مياهها القذرة، مياها سودا تطفو عليها بقع بيض رغوية، تفور عند رأس هذه القناة العميقة ثم تهدأ وتمضي بعيدا.

بوابة «مكينة رمو» مشرعة دائما، تنفتح على القنطرة حيث يمكن رؤية اناس يجلسون لصق الحائط على طرفيها، نساء صامتات، ماسحي أحذية عائدين من عملهم، يتناولون طعامهم في أطباق مطلية بالميناء، شحاذين وصباغي أحذية صغار ذوي شقرة لوحتها الشمس، شعورهم ذهبية متوهجة، أما وجوههم فقد صبغتها الشمس بلون النحاس. وكان ثمة شيوخ لا يبرحون أماكنهم، عوائل برمتها كانت تعيش في تلك الأقبية الصغيرة على جانب القنطرة وفي الغرف القائمة في الطرف الأقصى من الساحة.

في الساحة ثمة طحانون يلكزون حميرهم فتندفع أمامهم إلى الرواق الطويل الذي تتكدس فيه أكياس الطحين فلا تبقي منه إلا بابا صغيرا ينفتح على الطاحونة، حيث يصادف المرء رجالا ابيضت ملابسهم ووجوههم من الطحين، أهدابهم ثقيلة بيض وشعورهم فقدت دكنتها، يصرخون إذا تحدثوا فلا تضيع أصواتهم في هدير الماكنة. وكانت الأحزمة الدوارة التي يمكن رؤيتها تحدث ايقاعا رتيبا ما أن يصغي إليه المرء حتى يتحول إلى كلمة تتتابع دون كلل، تكتسب في الذهن معنى، «جبل»، «عيد» أو أية كلمة يمكن أن يفكر فيها المرء. ثمة نسوة يجلسن فوق السطيحة الخشبية ينتظرن دورهن، يتناولن حفنة من الحبوب التي توشك أن تختفي في فتحة الدلو الهرمي، يتفحصنها، وأحيانا يسمع احتجاجهن: «لا تطحنه على شعير». حين تحل عقدة زكيبة فيندلق القمح في الدلو تكون حفنة قمح من الزكيبة التي سبقتها قد بقيت في قاع الدلو وكمية أخرى تملأ الدهاليز داخل الماكنة. إن هذا

ليختلط بالقمح الجديد فتحمل كل زكيبة شيئا من التي سبقتها. «لا تطحنه على شعير.» هذه الصيحة تسمع في الأزقة كلما فتح باب ودفع كيس قمح خارجه. يتناول الطحان الكيس فيلقيه على ظهر حماره غير مكترث بالتوصية، فهو قد سمعها في كل مرة تناول فيها كيسا.

حين يتأخر الطحان تحمل المرأة قمحها إلى الطاحونة أو تغري أحد أطفالها بحمله. وفي الطاحونة كان يمكن أن يرى بين حين وآخر طفل ينفجر باكيا. لقد انتظر طويلا فلم يفلح في التسابق مع الكبار، النسوة والطحانين. ربما فحصت إمرأة قمحه فرأته خليطا من قمح وشعير. إن دوره لن يأتي أبدا. يراه الطحان فيرق له، يسأله عن اسمه، عن مكان بيته، ويطحن له قمحه. يكف الطفل عن البكاء ويمسح وجهه بظهر كفه فتتسع البقعة التي غسلها الدمع من وجنتيه. سيحصل على عشرة فلوس من أمه لقاء هذا العمل. عشرة فلوس تعني ثلاث زجاجات من «النامليت». وستمحو تلك الحلاوة المحرقة آثار التعب. غير أن عليه قبل ذلك أن يغسل وجهه.

إن «ماكنة رمو» لتستأنف حياتها من الفجر حتى المساء. عندها يتوقف جميع الذين يمضون في ذلك الشارع. وما أندر ما يستأنف أحد سيره فيتجاوز تلك الانحناءة في الشارع الذي يقوده إلى محطة القطار عابرا حقولا ملونة، إذا انصرم الربيع شوهدت فيها بيادر القمح الذهبية تسطع في الشمس. إن الطريق إلى محطة القطار ليبدو بعيدا. ما كان أحد ليذهب إلى هناك ماشيا. في

نهارات الربيع وحسب كانت النساء يأتين بصحبة أطفالهن للنزهة. وكان الأطفال يتحينون غفلة الكبار لينسلوا وسط العشب الذي يرتفع فوق رؤوسهم. كان البعض لا يبتعد كثيرا ليبلغ هذه الحقول، فثمة أماكن أقرب للنزهة. كانت المقبرة التي تمتد على يسار الشارع الذي يبدأ حيث تتفرع الطرق وتفترق عند باب البيض ويستمر منحدرا حتى الطاحونة تبدو في الربيع أكثر ألفة. القبور دارسة يحيطها العشب ترصعه زهيرات البيبون، وينبت فوقها السذاب، إذا دعكت ثمراته الخضراء بين الأصابع انبعثت منها تلك الرائحة التي لا يخطئها الأنف، رائحة لا تشبه شذى، نفس الرائحة التي تنبعث من ثمراته الجافة إذ تُلقى في النار لتحترق في طقوس يائسة لإبطال السحر أو إعادة الطمأنينة إلى قلوب أطفال خائفين. يطقطق الحرمل في فحم المجمرة، بينما تنصهر بلورة شب على صفيحة وضعت فوق النار، تتحول إلى دائرة من سائل شفاف كثيف يبيض لونه شيئا فشيئا وهو يتصلب فيصبح قرصا ذا ثقوب وثآليل، تروزه الأمهات القلقات فربما استطعن فك تلك الرموز الخفية. لكن وظيفته تكون في هذه اللحظة قد انتهت فيصير إلى أيدي الأطفال.

القبور أيضا تمتد جنوبا أمام مدرسة البنات، يفصلها عن الشارع سور يبدأ عند باب المدرسة. وعلى طول الطريق الذي يحاذي السور كان حائكون يقيمون أسديتهم، يصلحونها أو ينشرون غزولهم التي صبغت لتجف. مرة واحدة ذهبت مع رفيقة لي نستكشف هذا المكان. لم يكن ثمة سوى حجارة وتراب

خشن. فجأة توقفت رفيقتي وأطلقت صيحة خوف. توجهت إليها فأشارت إلى الأرض: «إنه ورل.» كان ثمة حيوان ميت قد جففته الشمس. لم أكن قد رأيت زحافة كهذه. كان لها حجم تمساح صغير. قالت رفيقتي تؤكد معرفتها إزاء جهلي: «إنه حيوان خطر، إنه سام.» كان الحيوان الميت قد أثار في النفور أكثر مما أثار في الخوف، فتابعنا طريقنا مبتعدين ولم نعد إلى ذلك المكان ثانية.

حين ينتهي السور ينبسط الشارع في الساحة الكبيرة للباب الجديد، حيث تتعدد الطرق وتتشعب. وغير بعيد منها، خلف الأبنية القليلة المتراصة يقوم سور آخر يحجب خلفه تلة ترابية كنا نمر بها ونحن في طريقنا إلى المدرسة. ما كانت هذه التلة لتعرف بهجة الربيع في العشب وشقائق النعمان، فما نبتت عليها عشبة أبدا، ولكن إذا تقدم الربيع انتشرت عليها قطعان غنم أتى بها الرعاة ليجزوا صوفها. كنا ونحن نعود من المدرسة نرى الأغنام قد غدت عارية قبيحة، والصوف قد جمع في أكوام. أغنام أخرى تجري على جلدها مقصات الرعاة وأخرى تنتظر. كان ذلك يستمر أسبوعا أو اثنين ثم تعود التلة جرداء كما كانت. لا عشبة، لا حجارة، لا شيء سوى غبار خفيف تثيره الريح إذا هبت. ثم يأتي يوم نرى فيه أوتادا تدق في الأرض القاسية، وتنصب أراجيح ودواليب، فنعرف أنه العيد يقترب. على هذه التلة كنت قد شهدت العيد مرة واحدة، تأرجحتُ، ضعت وبكيت. ما كان أحد ليبتعد صاعدا إلى قمة تلك التلة التي تنحدر من الطرف الآخر مسلمة ايانا للقبور تنتشر متقاربة في أرض كثيرة الانحناءات

والحفر. ما ذهبت لاستكشاف هذا المكان وحدي. لكننا انسللنا إليه فرقا صغيرة في طريق عودتنا من المدرسة، يجذبنا إليه ذلك اللغز الغامض: الموت. هنا قبر انفتحت عند نهايته حفرة عظيمة، وهنا يرقد طفل، وتتابع رفيقتي الشرح وهي تشير إلى مشكاة في شاهدة قبر: «هنا يوضع مصباح يضيء للميت.» نقرأ رموزا لا نفهمها وأشعارا مثل:

يــا زائــرا تـــرابـــي ابـك عـلـى شـبـابـي
بالأمس كنت مثلك والـيـوم فـي الـتـراب

فنسلم أنفسنا للحزن والتأمل، ونظن أننا قد تعلمنا شيئا.

مسالك أخرى

مرت ثلاث سنوات منذ أن تركت أمي يدي أول مرة، تركتني وسط حشد من أطفال لا أعرفهم، بعضهم يصطف أمام غرف الدرس وبعضهم يتجمع في غير انتظام في جانب من ساحة المدرسة. رأيتها تبتعد فبكيت. ثم أصبحت المدرسة مدرستي. لم تعد الساحة الترابية الفسيحة تخيفني. تعرفت خلال تلك السنوات على كل زاوية فيها، عرفت أضلاع سورها الطويل والأعشاب التي تنمو عنده في الربيع، عرفت الممرين إلى ساحتها الخلفية حيث ينمو العشب دون أن تسحقه الأقدام، ولم أعد طفلة السادسة التي كنتها، تحيطها المعلمة برعاية خاصة وتكافئ اجتهادها بين حين وآخر بقطعة طباشير، لقد أنهينا الصف الثالث، الصف الأخير في «ابن الأثير»، مدرسة الأحداث، وحان الوقت للانتقال إلى مدرسة البنات. المدرسة القريبة اعتذرت عن قبولنا، إذ لم يعد فيها متسع لتلميذات جديدات. وإذن فقد أصبح علينا البحث عن مدرسة أخرى. كان أغلبنا قد بلغ التاسعة أو تجاوزها بقليل، وقد اعتبرنا المسألة مسألة مستقبل ومصير فأخذنا الأمر على عاتقنا وكنا نشعر بالسعادة ونحن نقوم بهذا الدور الذي كان جديرا بالكبار. مضينا

من مدرسة إلى خرى نبحث عن مكان لنا، وقد كان بحثنا فائضا فقد افتتحت مدرسة جديدة لاستقبالنا. كانت المدرسة الجديدة بعيدة عن بيوتنا، ولم تكن قد حصلت على ما تحتاجه مدرسة من أثاث، فجلسنا على الحصر بضعة أسابيع قبل أن نحصل على القماطر. لكن كل شيء ما لبث أن انتظم وأصبحت للمدرسة مكتبة أعارتنا المعلمة منها قصصا للقراءة، إلا أنني لم أجد في قصة «الفأر فرفر»، في كلماته الموجزة وجمله القصيرة ما يمكن أن أعتبره مسليا وكنا قبل ذلك قد قرأنا في الكتاب المدرسي قصصا من كليلة ودمنة وحفظنا عن ظهر قلب أخبار حلم معن بن زائدة. لكن جحا الذي دخل على قومه دون أن يبلله المطر المنهمر في الخارج وادعى أنه سار بين القطرة والقطرة بدا لي أكثر ذكاء من الفأر الذي يدلي ذنبه في قارورة العسل.

تمر الشهور الأولى وتتغير المعلمات، تتزوج معلمة اللغة فتنتقل إلى مدينة أخرى، ينزاح عني ثقل سوء تفاهم لا يقر به أحد ولا يحمله الكبار محمل الجد. ايفيلين التي لا تحب الفقراء، تنتقل أيضا إلى مدرسة أخرى. لقد تربت في اليتم، وربما رأت في الفقر صورة حياتها التي لم تخترها، وليس أكثر فقرا من طفل يتيم الأبوين. ربما كان لعالم الأغنياء سحر لا تمكن مقاومته، يشدها للاقتراب منه حتى لو لم تكن قادرة على الدخول فيه. لقد رافق المسكينة سوء الطالع. تزوجت مهندسا شابا وأصبح لها بيتها، ولكن ذلك لم يدم سوى سنوات قليلة، فقد مات زوجها ميتة مبكرة. كان قد عاد من رحلة خارج المدينة، وقبل وصوله

بقليل اصطدم الباص الذي كان يقله، نقل الجرحى إلى المستشفى، أما هو فلم تبد عليه إصابة ما فمضى إلى البيت، ولكنه مات بعد وصوله بأقل من ساعة. قال الأطباء إنه قد أصيب بنزيف داخلي.

نعتاد المدرسة، ونعتاد الطريق إليها، طريق طويل نقطعه أربع مرات في اليوم، ونألف مشهد الأرض المتربة التي نمر بها قبل أن نصل الشارع الذي تقوم البيوت على طرفيه. في أيام الخريف كنا نرى على الرصيف المترب فلاحات يجلسن أمام أكوام صغيرة من البطيخ الأصفر الكبير، نمر بهن في الصباح، فإذا عدنا في الظهيرة لا نجد لهن أثرا. وفي الشتاء يغرق الشارع في سبات عميق لا يستيقظ منه إلا في الربيع، حين يبدأ موسم جز الصوف. اعتدنا أيضا مشهد ذلك البيت على الطريق، يفتح بابه في الصباح وتصف أمامه وفي مدخله سلال فيها ليمون، سكاكر، علب كبريت وأشياء أخرى، الدكان الوحيد في الطريق، نشتري منه ليمونة بفلسين، نضغطها حتى تكتسب رخاوة بين أصابعنا، ثم نحدث فيها ثقبا فينفجر منها العصير مثل نافورة، نمص عصيرها الحامض ونحن في طريقنا إلى المدرسة، أو نحتفظ بها للفرص بين الدروس. تمر سنوات أخرى، تتسع المدرسة ويزداد عدد تلميذاتها، فيفتح باب في الجدار إلى البيت المجاور الذي سيضم إليها، بيت صغير، تقيم في إحدى غرفه فراشة المدرسة الجديدة مع عائلتها، إمرأة شابة أنيقة. حين لا يبقى للعيد سوى يومين، وتكون قد أعدت عجينة كعكه، تطلب منا مساعدتها، فنجلس حول الصينية وندعك

العجين فيتشكل بين أصابعنا، نحاول أن نظهر مهارة في عملنا. أمي لم تكن قد سمحت لي بعد بعمل كهذا، فأشعر بالزهو. الدروس الإضافية كانت أمرا شائعا في تلك الأيام، ولم تكن المعلمات ليبخلن بوقتهن من أجل تحقيق نسبة عالية من النجاح.

بعد أسابيع من العمل الدؤوب أدينا الامتحانات النهائية، واستقبلتنا معلمة الحساب في بيتها، بيت صغير جميل مثل كل البيوت في ذلك الحي. اطمأنت إلى أننا قدمنا أجوبة تضمن لنا نجاحا مؤكدا. كانت مربية رائعة، ماري بيثون. لم تكن لتنظر إلى نجاحنا أو إخفاقنا دون اكتراث.

لم تكن المدرسة هي غرف الدرس وحدها نتعلم فيها اللغة والتاريخ وإنما كانت أيضا مسالك تتعدد وتتشعب وتقود إلى أماكن ومعارف جديدة، متاحف، مكتبات، سجون، المصانع الكبرى في المدينة، منشآت تتخذ زيارتها ذريعة لرحلة يوم واحد إلى القرى القريبة. كنا ننتظم في صف طويل ونحن نقطع الطريق إلى متحف أو مؤسسة. ولم تكن تلك الزيارات إلقاء نظرة عابرة على مكان ما ولكنها التماس مع اناس آخرين غير الأم التي تشملنا برعايتها والأخ المتسلط الذي يريد أن يكون صاحب القول في البيت، والرفيقات نلعب معهن. إنها حيوات لها تاريخ آخر: قاتل محكوم بالإعدام يقضي أيامه الأخيرة في الصلاة في غرفة لا نافذة لها، منتظرا يوما يفتح فيه باب غرفته ليقاد إلى الغرفة الأخرى التي تقع لصقها، لا يفصلها عنها سوى جدار. ستنشق الأرض تحت قدميه فيبقى معلقا في الهواء قبل أن يترك ليسقط في ذلك القبو

الذي تنز أرضه بالماء، رجل لا حول له، لم يعد يرجو من البشر شيئا فانصرف إلى ربه في خشوع كامل، يطلب منه المغفرة والعون. وعلى بعد متر واحد يقف جلاده الذي سيضع بعد يوم أو أسبوع الانشوطة في عنقه، يفتح لنا الباب، ندخل وراءه فيشرح لنا كيف تعمل آلة الموت التي يقوم بتشغيلها، ويخبرنا بانشراح أنه يحصل على مكافأة إضافية في كل مرة يقوم فيها بتنفيذ حكم الإعدام. لا يخفي مسرته حين لا تعود الغرفة المجاورة خالية. ينتظر بنفاد صبر الساعة التي سيفتح فيها بابها. كانت هذه العلاقة بين الرجلين عصية على الفهم، فهمنا نحن الذين لم نتعرف بعد على العالم خارج بيت الأبوين وغرف الدرس. رجلان يقفان على بعد خطوات من بعضهما، لم يعرف أحدهما الآخر من قبل، ومع ذلك سيسر أحدهما بموت الآخر. نتحدث إلى الرجل في الغرفة المربعة العارية من وراء قضبان الباب، فيحدثنا حديثا يشبه اعترافا. يملؤنا الإشفاق على رجل لا نشك في صدق توبته، ولا نستطيع أن نفعل من أجله شيئا.

الرحلات المدرسية كانت تمتد حتى وقت متأخر في المساء وأحيانا حتى منتصف الليل. مرة أصاب بطارية السيارة عطب ونحن في طريق العودة من سرسنك، في واحد من التواءات الطريق الحادة العديدة، فاضطررنا للانتظار حتى منتصف الليل. كان على السائق أن يتدبر الأمر، ولم يكن ثمة مخرج من ذلك المأزق إلا بإرسال مساعده ليقطع الطريق مشيا إلى أقرب قرية من أجل الحصول على بطارية جديدة. لم يثر ذلك قلقنا، وقد وجدنا

فرصة للانتشار من جديد على جانب الطريق حيث تنحدر الأرض انحدارا شديدا، وحيث يتأهب الوادي تحتنا لليل القادم. في اليوم التالي رويت في المدرسة نفس القصص التي تروى في مناسبات كهذه عن فزع الأهل، وعن نداء هاتفي من مجهول يبلغهم بانقلاب السيارة. لم تكن مثل هذه الحوادث الصغيرة لتمنح الرحلة طابع المغامرة، لكنها القصص التي تحاك حولها. وكانت التلميذات الأكبر سنا أقدر على حبك هذه القصص، على العثور على لغة الحوار مع المعلمات وعلى قول ما يدهشنا: «هذا وادي الجماجم». ننظر من النافذة إلى الأرض التي تنحدر على جانب الطريق، ثم نرى الوادي وقد اقتربت السيارة من انحناءة جديدة، يمتد مثل هوة لا قرار لها. تشرح رفيقتنا: «أطلق عليه هذا الإسم لكثرة السيارات التي سقطت فيه.»

لقد مرت سنوات أخرى، سنوات طويلة، ها أني أمر وأنا عائدة من المدرسة أمام امرأة تقترب من الشيخوخة، تقف بباب موارب فألقي عليها التحية، ترد تحيتي بوجه جامد، معلمتي الأولى، إنها لا تتعرف فيّ على الطفلة التي كنتها. بعد حين أشعر أن تحيتي فائضة وأنني ربما جرحت وحدتها فأوفر عليها هذا العناء.

كان يزورنا بين حين وآخر أولاد أعمام يأتون من الجزيرة، كانوا شبانا أقوياء ذوي شعور مرسلة حتى الأذنين. يأتون فيغسلون شعورهم ويرتدون ملابس جديدة اشتروها من المدينة. لقد باعوا قمحهم وكوفئ عملهم المثابر، عمل عام كامل، فامتلأت جيوبهم بالنقود. تجتهد أمي أن تكون مضيفة كريمة رغم ثقل عبء أطفالها السبعة. كانوا يقيمون أياما ثم يرحلون. حين أصبح عليهم أن يستقروا استقروا في الشام. ولكن لم يكن بالنسبة لهؤلاء البدو الذين ضربوا في الجزيرة طولا وعرضا مسافة بعيدة. لقد تابعوا زياراتهم، غير أن هذه الزيارات أصبحت أقل انتظاما. مرة أتوا معهم بخروف أبيض صغير، أقمنا نرعاه مثل طفل أثير، حتى كبر، ثم ما كان له أن يبقى في البيت أطول من ذلك، وما كان أحد فينا ليرضى تذوق لحمه، فأخذ إلى القصاب.

حين خرجنا ذاهبين إلى المدرسة في اليوم التالي، ومررنا بدكان القصاب، ارتفع ثغاؤه ونحن نمر به، كان يناديا.

في سنوات مبكرة كان الأمر أكثر يسرا. كنا نلتقط قطة صغيرة من الشارع، نحملها إلى البيت، القطط الصغيرة حيوانات مستكينة

تألف الناس بسرعة. إذا لم نتلق أمرا صارما بالعودة بها من حيث جاءت، فربما احتفظنا بها حتى انتهاء عطلة الصيف، حينها تكون القطة قد كبرت وفقدت نظرتها المستكينة وسحرها، سحر حيوان ضعيف لا حول له. لكن التخلص منها لم يعد سهلا. كانت القطة توضع في كيس، تحمل إلى مكان بعيد، أحيانا إلى الطرف الآخر من المدينة لتطلق من كيسها هناك. لكن ما كانت لتمر أيام حتى تكون قد عبرت جسورا وقطعت شوارع ووجدت طريقها إلى المنزل ثانية. غير أن إقامة الحيوانات ما كانت لتطول في المنزل. كنت أعود إلى البيت ببلبل اشتريته من أحد باعة الأرصفة فيجد بابا مفتوحة ذات يوم ويطير، أو سنجاب ظللت أحلم به أسابيع فيهرب ويرتقي أول شجرة تصادفه ولا يعود إليه ثمة سبيل. مرة أبديت إعجابي بكلب في قرية كنت أعمل فيها، واحد من كلاب الرعاة الكبيرة الرشيقة، قال الأطفال بصوت واحد: «إنه كلب البدران.»

في اليوم الثاني فوجئت بالكلب يجر مربوطا. جيء به إلي يتبعه جيش من الأطفال. كان الموكب قد مر أمام بيوت كثيرة في القرية قبل أن يصل إلى المدرسة، وكان الكلب الذي ما اعتاد أن يربط يقاوم وينبح. ما استطعت أن أقبل هذه الهدية، لكني قبلت يربوعا أهدي إلي، لم يدهشني هذا الجرذ الرشيق رغم أني لم أكن قد رأيت يربوعا من قبل. حملته معي إلى البيت. وحين أردت أن أطلقه في حديقة المنزل الصغيرة، لتكون له مسكنا، وجدته ميتا. حيوان الحقول هذا لم يحتمل حرارة الطريق. وقد كان حزني أشد وأعظم لسنونوة جيء بها إلي جريحة. كانت قد أصابتها مروحة

السقف وهي تغادر عشها فسقطت وما عادت قادرة على الطيران. حملتها إلى البيت ورعيتها أياما، أتيتها بحبوب مما يأكل الطير فما اقتربت منها. ثم رأيتها تتيقظ وهي ترى ذبابة تطير أمامها. آه، ما أغفلني. دأبت أصطاد لها الحشرات بعد ذلك، وصارت تستعيد عافيتها شيئا فشيئا. في الليل كانت قد اختارت ساعة الحائط تنام فوقها. وما كانت لتسمع صوت الأقداح، إذ نكون قد جلسنا نتناول إفطارنا حتى تهبط من مكمنها. انعقدت بيني وبين هذا الطائر الذي ظننته نفورا صداقة ما كنت أنتظرها. أصبح يتبعني وأنا أصطاد له الحشرات. ثم أني خفت على سنونوتي من القطط فاشتريت لها قفصا وضعتها فيه في المساء. وفي الصباح وجدتها تستلقي مفرودة الجناحين، ميتة. ما كنت أعرف أن هذه الطيور الصغيرة التي تبني أعشاشها في الغرف العتيقة، غير قابلة للامتلاك.

حلمت ثلاثين عاما بواحد من تلك الجداء الصغيرة السود النشيطة، تقفز وتطوح بأذانها. أما أن أمتلك حمارا، فتلك رغبة ما عاشت إلا وقتا قصيرا. رغبة تعود إلى سنوات الطفولة المبكرة، رغبة لم أفصح عنها أبدا. خلف نقطة المراقبة عند القنطرة التي يمر عليها القطار تنبسط مراع خضر لا نهائية . في المساء كنا نصادف بين الحين والآخر حمارا وحيدا يرعى العشب. أتلفت يمينا ويسارا فلا أرى أحدا. أسأل أمي عن صاحب الحمار فتخبرني أنه حمار لا سيد له. كانت حميرا حديثة الولادة أو يافعة زهد فيها مالكوها فأطلقوها في البرية. أفكر فيما سيحل بهذه الحيوانات إذا ما تقدم الصيف وجف العشب فلا أجد جوابا. ألقي

نظرة ورائي ونحن نعبر نقطة المراقبة إلى الجهة الأخرى من القنطرة حيث ينحدر الطريق هابطا، يمتد إلى يساره سور تنبت أمامه أعشاب كثيفة، وعلى يساره سياج من أسلاك شائكة تنحدر الأرض خلفه انحدارا شديدا وتنبت عنده أشواك شاحبة الخضرة تطرزها زهيرات بنفسجية، زهيرات لا سبيل إليها، إذا غالب المرء أشواكها وقطفها لم يعرف ما يصنع بها. زهيرات لا أعناق لها تتفتح على ساق النبتة وتكتسب بهاءها من الجفاف المحيط بها. نهبط الطريق الذي يكف عن الانحدار شيئا فشيئا حتى يستوي، ننعطف يسارا حيث ينتهي السور، على يمين الطريق جدار أصم إذا ما بلغنا نهايته استطعنا أن نرى منزلا وحيدا في تلك المنطقة الخالية، يرتفع بابه عن الأرض بأربع درجات. ما رأيت ذلك الباب مفتوحا، ولا رأيت أحدا يقترب من ذلك البيت، يدخله أو يخرج منه، طفلا يلعب عند بابه أو امرأة تطل من نافذة أو من خلف جدار. كان الطريق يمر أمام ذلك البيت الوحيد ولكن بعيدا عنه، تفصله أرض قلب ترابها في أكثر من موضع. إلى الجهة الأخرى من الطريق ترتفع الأرض قليلا ثم تستوي. أرض صلبة لا تغوص فيها القدم ولا ينبت فيها عشب، هناك رأيت في المساء جمالا كثيرة، بعضها رابض وبعضها يقف في سأم. ما كان ذلك سوقا للجمال فلم تكن هذه الجمال لترى في النهار. ربما كان محطة راحة لقافلة ما عرفتُ من أين كانت تأتي ولا أين كانت تذهب. لكنها كانت هناك في المساء، ربما في الليل أيضا. أحيانا لا يكون الوقت متأخرا، وحين تكون الجمال هناك مع رعاتها،

تبدد وحشة المكان. كنا نختصر الطريق فنعبر تلك الهضبة الترابية إلى حيث تبدأ المدينة، شارع عريض شق حديثا، إلى يساره شريط من الأرض قلبت ترابه الجرارات. أنظر إلى الأرض في توجس مستعدة للمفاجأة التي قد تداهمني في أية لحظة. هذا عظم يظهر فوق التراب الهش الرطب، ربما كان بقية من هيكل إنسان. لا أدري من قال لي إن ثمة عظاما بشرية في هذا الموضع وإنه كان قبل ذلك مقبرة. ربما كان الأمر برمته وهما صنعته مخيلة أطفال سمعوا الكثير من حكايات الجان والموتى الذين ينهضون من قبورهم فاختلط عليهم الأمر.

على مسافة بضع مئات من الأمتار فقط ممر شديد الانحدار. كان نزوله أحب إلي من صعوده، نصعده ربما بشيء من المشقة فيقذفنا في طريق ضيق وسط البيوت. لقد عبرنا الممر الفاصل بين تلك القفرة والمدينة العامرة بالحياة. ثمة دكاكين لا تزال مفتوحة. أناس يعودون إلى بيوتهم، يتوقفون في الطريق، يحيي بعضهم بعضا، يتبادلون أحاديث قصيرة ثم يتابعون طريقهم. كان هذا أقصر الطرق إلى البيت. الطريق الآخر يمتد خلف هذا الحشد من البيوت، عميقا مثل واد، يهبط إليه بعدد لا يحصى من الدرجات، يكون حتى في مثل هذا الوقت وقد تقدم المساء طافحا بالحيوية. الدكاكين الكثيرة على جانبيه لا زالت مفتوحة، سوق الخضار وحدها تغلق في وقت مبكر. لقد رفعت سلالها التي تصف في النهار على الرصيف، وبدت شبه خاوية، بعضها يهم بالإغلاق. هنا من رأس الجادة يبدأ شارع يقطع المدينة في استقامة لا التواء

فيها. تذكر أمي أنها رأت في هذا المكان مشهدا لم تستطع أن تنساه بعد ذلك أبدا: إمرأة تجمع أشلاء طفلتها وتضعها في كيس تحمله على ظهرها. كانت قد سقطت قنبلة على ذلك المكان، كان ذلك في الحرب العالمية الثانية. تتحدث أمي عن ذلك بحزن وتقول: «رأيت ذلك بعيني.»

إشارات

إذا قطعنا الزقاق القصير، حيث يقوم بيتنا، حتى نهايته، بلغنا الشارع الذي تقوم على الرصيفين المتقابلين على يساره دكاكين البقالين، حسين البقال الذي يشتري منه جميع سكان الحي كل ما يحتاجونه من الإبرة حتى زجاجة الكيروسين، وفي مواجهته دكان متواضع لبيع الخضر، دكان جهاد، نعرف حتى نحن الأطفال أن الرجل كان قد خدم في الجيش العثماني وأنه يتقاضى مرتبا تقاعديا، ثلاثة دنانير. الرجال الآخرون في مثل سنه كانوا قد رفضوا الخدمة في الجيش العثماني، جيش المستعمر. إذا لم يجدوا ذريعة لاستثنائهم من الخدمة هربوا متخفين حينا. أبي كان قد هرب أيضا. كان الرجال يروون حكايات طريفة عن دوريات الحكومة التي كانت تبحث عن الهاربين. استوقفت إحدى هذه الدوريات مرة رجلا اشتبهت بهربه. سئل عن اسمه واسم أبيه فادعى أنه حمادي بن جزر، تركته الدورية فمضى على حماره مستأنفا رحلته. بعد ساعات التقى نفس الدورية التي استوقفته لتسأله عن اسمه واسم أبيه. كان الرجل قد نسي ما قاله في المرة الأولى فأجاب هذه المرة أنه جزر بن حمادي. هز رئيس الدورية

رأسه متعجبا: «سبحان من جعل حمادي جزرا.» لكن جهادا كان مضطرا للعمل فراتبه التقاعدي لا يكفي.

كان لجيل أبي ما يرويه، مغامرات ناقصة في الهرب من «الجندرمة»، مغامرات من الحرب العالمية الأولى ومغامرات في الأسر. لقد احتفظ محمد الروسي، صديق أبي، بالكثير من الحكايات من سنوات أسره في روسيا، وكان ما يرويه يشبه مغامرة مثيرة، إلا أن حياته بعد ذلك كانت شديدة التواضع، لا تشبه حياة بطل.

على بعد أمتار من دكان جهاد دكان صفت فيه زجاجات امتلأت بالسكاكر، أحقاق بندق وحب بطيخ وخلائط من قضامة وزبيب. كان الدكان صغيرا حتى أن صاحبه، وهو شيخ بدين، ما كان يحتاج للنهوض ليلبي طلبات زبائنه الذين كانوا في غالبيتهم من الأطفال. كان يمد يده ليخرج قطعتي سكر من هذه الزجاجة أو حفنة قضامة من تلك. كنا إذا اشترينا ما أردنا وعدنا إلى البيت تسألنا أمي عما تبقى من النقود فتكتشف أننا قد أنفقنا ما أعطتنا ولم نبق منه شيئا، فتصيح فينا: هل ذهبتم ثانية إلى ذلك الخنزير؟ إنها تعرف أنه لا يذهب إليه طفل حتى يغريه بشراء هذا وذاك ويستولي على عشرة الفلوس التي معه بأكملها. ومع ذلك لم تمنعنا من الذهاب إليه ثانية. كنا لا نشتري منه فقط ولكن نعقد معه صفقات بيع أيضا. فإذا أكلنا الرمان وتجمعت منه قشور كثيرة حملناها إليه وقبضنا ثمنها. إنه سيبيعها بدوره إلى مدابغ الجلود. ومن زوجته كنا نشتري حليبنا. بيته لا يبعد سوى بضعة أمتار عن

الدكان، وقد كانت لزوجته بقرتان تبيع حليبهما. ترسلنا أمي لشراء الحليب وتقول لنا: «بلغوها تحياتي وقولوا لها ألا تمزج الحليب بالماء.» ننقل إليها رسالة أمي فتقول: «بالطبع، بالطبع. أنظروا، سأحلب البقرة في حضوركم.» نراقبها وهي تأتي بسطل تضعه تحت البقرة وتشرع بحلبها فإذا فرغت ملأت بالمغرفة إناءنا، فنعود ونحن مطمئنين. «لقد حلبت البقرة أمامنا.» ذات يوم اكتشفنا أن السطل الذي تضعه تحت البقرة ليس فارغا، وأننا لم نحصل طول الوقت إلا على حليب مخلوط بالماء.

كنا نعبر الشارع ونمضي في الزقاق الذي يكاد يكون امتدادا لزقاقنا، لولا ارتفاع الأرض ارتفاعا هينا. نمضي دقيقتين أو ثلاث فنبلغ تقاطع الطرق، حيث تقوم في ثلاث من زواياه ثلاث كنائس، مقبرة وروضة أطفال. كنا نرى أطفالا حليقي الرؤوس يرتدون صدرات من قماش خشن ذي مربعات زرق وبيض، الصبيان والبنات على السواء، يمضون في صف يحتفظ بانتظامه حتى في الشارع. نراقبهم وهم يدخلون أحد الأبواب القريبة من الكنيسة، ونشعر بالسعادة لأننا غير مضطرين إلى ارتداء تلك الصدرة الخشنة والانتظام في صف في الطريق أيضا. كنا نملك حرية اللعب، حرية ارتداء الثوب نفسه حتى يتسخ، حرية الجري والتوقف في الطريق لمراقبة مشهد يبدو لنا مثيرا، حرية أن نبادر راهبة نصادفها في الطريق بالتحية، نتمنى لها صباحا سعيدا فترد علينا بالمثل. ما كان الكبار ليردوا تحية طفل. الراهبات وحدهن يفعلن ذلك. كنا نراقب بإعجاب الحاشية البيضاء المنشاة في

غطاء رؤوسهن، وملابسهن السود الفضفاضة، وتلك الطمأنينة في وجوههن.

الطريق ذاته كنا نقطعه حيثما ذهبنا، إذا اصطحبتنا أمي إلى «السرجخانة» لتشتري لنا قماشا لملابسنا، شرائط أو مناديل، إلى بيت جدتي أو بيت خالتي. وبعد ذلك بسنوات إلى متوسطة الملكة عالية ثم إلى ثانوية البنات.

نعود ذات يوم من المدرسة، نبلغ الموضع عند تقاطع الطرق، حيث تقوم الكنائس الثلاث، فنجده مكتظا بالناس، ليس ثمة موضع لقدم. الجميع يتحدث عن ظهور العذراء، لقد رآها أحدهم وهي تظهر وسط هالة من النور ثم تغيب تاركة صورتها مطبوعة على الجدار. ما استطعنا أن نشق طريقنا وسط الحشد إلا بمشقة كبيرة. مضينا إلى البيت، وفي اليوم الثاني توقفنا في طريق عودتنا لنلقي نظرة على الصورة التي خلفتها العذراء على الجدار. كان ثمة ناس يتجمعون هناك، سألنا عن الصورة فأشاروا إلى بقعة في مكان مرتفع من الجدار. بقعة خلفتها رطوبة الأمطار. لا بد أنها كانت هناك منذ وقت طويل دون أن ينتبه إليها أحد. صديقتنا التي كانت تنتمي إلى واحدة من هذه الكنائس لم تر غير ما رأينا. كنا لا نملك بعد سوى عيون الأطفال التي لا ترى في الشجرة سوى شجرة وفي الجدار سوى جدار. وقد رأينا الكثير من مثل هذه الصور والظلال. كنا نكتشفها في البقع على الجدران وفي الغيوم التي تتخذ أشكال حيوانات وأشخاص، تدفعها الريح فتتلاشى أو تتحول إلى أشكال جديدة. والأرنب الذي رأيناه في

البقع الداكنة على وجه القمر لم ينهض من موضعه أبدا. ربما أصبح الناس منذ اليوم أكثر لينا وأكثر تسامحا. وربما مر شخص مثقل القلب من هنا بعد سنوات فبعث مريم ثانية من الوهم أو من كذبة حسنة المقاصد، أطلقها في فضاء الساحة وسط هالة من النور وتركها تخترق الجدار وتخلف بقعة جديدة كالأولى. ستتجمع حشود من الناس من جديد وتفكر: لقد حان الوقت لنصلح أنفسنا.

فاطمة تقرأ القرآن

نهبط الدرجات الثلاث إلى غرفة الدرس، نجلس في أماكننا، تفتح عاتكة، شريكتي في القمطر حقيبتها، تخرج منها رسالة، تناولني اياها وتقترح أن نتبادل كتابة الرسائل. إنها تريد أن تقوم ببعض التدريبات على الكتابة. لكن الفكرة لا تثير حماستي، فأي حاجة بنا لكتابة ما نستطيع قوله في الحال؟ تدخل المعلمة ويبدأ الدرس. نفتح القرآن حيث تطلب المعلمة، وكنا قبل ذلك قد وضعنا فوطا بيضا فوق رؤوسنا. تبدأ تلميذة بالقراءة، قراءة مترددة متعثرة. تتبعها ثانية وثالثة. الصعوبة نفسها. كان لأغلبنا نسخ متشابهة من القرآن مكتوبة بخط عثمان، كانت أمي قد استوهبت نسخة لنا وخاطت لها كنفا من الحرير الأخضر، والحقيقة أن الأمر لم يكن هبة فقد دفعت لصاحب المكتبة نصف دينار. لم تمنع النسخة التي اختيرت بعناية من الالتباس، فكثيرا ما شعرنا أننا ضائعون وسط اصطلاحات الضبط وعلامات الوقف التي ما كنا قد تعلمناها. فصعبت علينا قراءة «مشكواة» و«آيت» قراءة صحيحة. ثم يأتي دور فاطمة فتكون القراءة المتعثرة المجهدة قد انتهت وبدأت ساعة من التجلي والخشوع. فاطمة تجلس في وسط

الصف تماما، صبية ناحلة هادئة لا تلفت إليها النظر، يضيع وجهها بين وجوه التلميذات الأخريات، لكنها في درس الدين تتفوق علينا جميعا، تشرع في التلاوة فلا يسمع سوى صوتها الصافي القوي في الصمت المطبق. نصغي، ونتمنى أن تتلو المزيد. كانت فاطمة تستطيع ما لا تستطيعه الأخريات. نتحلق حول فاطمة بعد الدرس، نحاصرها بفضولنا، نمطرها بأسئلتنا، أين تعلمت تجويد القرآن؟ فتحكي لنا عن عم لها علمها ذلك. لقد تعلمت فاطمة الدرس فأتقنته، وقد كان هذا شيئا فذا لطفلة في الحادية عشرة.

ذات يوم تخلفت فاطمة عن المدرسة، وعلمنا أن عمها قد مات. حزنا لموته كما نحزن لموت قريب لنا، فقد عرفناه في فاطمة، في صوتها القوي وتلاوتها التي كانت تملأ نفوسنا بالسلام.

موت دانا

خلف الجدار تجلس في الظل ثلاث نسوة يقتربن من الشيخوخة، تتوسطهن كومة من تراب سويت واستطالت مثل قبر. تقسمها دانا ثلاثة أقسام، تدفع قسما باتجاه كل من الأخريين، ثم يبدأ البحث. يرتفع صوت إحداهن، تقول الأخرى شيئا، تختلط الأصوات، تكشف أصابعهن عن كسر دمالج ضائعة في كومة التراب، كسر خضر، حمر، متعددة الألوان. يرتفع اللغط لحظات حين لا تعود ثمة كسر أخرى، ثم يهدأ، وتبدأ اللعبة من جديد. أراقبهن من بعيد وقد ملأتني الدهشة. نساء يلعبن، وكنت قد ظننت أن اللعب شأن الأطفال وحدهم. نساء ليس ثمة ما يشغلهن في هذا الوقت من النهار. أمي تعد في هذه الساعة غداء العائلة، تتنقل في أرجاء البيت في عجلة، ثمة الكثير لتعمله وليس ثمة متسع من الوقت. سيعود الأطفال من مدارسهم واللحمة لم تنضج بعد. سيتناولون كسرة خبز يقضمونها، ستقول أمي: «لا تأكلوا خبزا فتشبعوا. ما هي إلا دقائق ويكون الطعام جاهزا.»

ليس لدانا أطفال. لكن ما من امرأة وحيدة في الحي. فللمرأة العازبة أولاد أخيها، وللجدة أحفادها توجه إليهم أوامرها وتمارس

عليهم سلطتها. أحكي لأمي عن النساء ولعبتهن فترتسم على وجهها علامات عدم الرضا ولا تقول شيئا.

كان لأمي الكثير لتفعله من أجل أطفالها السبعة، وكان عملها لا ينتهي إلا بحلول الظلام.

ذات يوم كانت ساحة الدار المجاورة تكتظ على سعتها بعباءات سود. خلف الجدار، حيث لعبت النساء يوما، نار عظيمة وضعت فوقها قدر كبيرة سوداء. جلسنا مع أطفال آخرين فوق الدرجات التي تؤدي إلى سطح الدار نراقب النسوة ينهضن وينتظمن في نصف دائرة، يشرعن بضرب صدورهن وهن يرددن شيئا ينتهي بعويل. كانت الميتة دانا.

لم يكن ما يحدث أمامي سوى مسرحية هائلة تشبه يوم الحشر، كنا في ذلك اليوم متروكين لأنفسنا، الكبار في غفلة عنا، يشغلهم ما هو أعظم من مشاكلنا الصغيرة، وكان ثمة شيء غريب يحدث، ليس في واحدة من الحكايات المثيرة، ولكن هنا قريبا منا، أمام أبصارنا.

حين مات الشيخ حنادي الذي طالما وضع كفه على رؤوسنا، وهو يتلو تعاويذه ليطرد عنا الخوف والمرض، لم أر ذلك المشهد لكني حزنت كما حزن الجميع لغياب الشيخ، الرجل الورع الذي نشر حضوره السلام على البيت. لم يكن الموت قد اكتسب في ذلك الوقت معنى ما، لم يكن يخيفني. وقد بقيت صورة دانا وهي تبحث عن كسر الدمالج في التراب، والشيخ وهو يتلو صلواته من أجل سلامتنا في ذهني، صورة حيين لا ميتين. وقد رأيت بعد

ذلك صورة تقترب من الموت أو ربما صورة الموت الذي لم أستطع أن أتعرف عليه.

كنت قد أصبت بسعال شديد أقلق أمي فتركتني أذهب بصحبة قريبة لنا ليفحصني الطبيب، وقد مكثت في المستشفى طول النهار، سمح لي خلال هذا الوقت أن أدخل غرفة صبي مريض. كان السرير الصغير في وسط الغرفة، تحت غطاء شفاف، وكان الصبي مغمض العينين، متورم الوجه. تركت الغرفة والطفل لا يزال في نومه العميق الذي لن يفيق منه أبدا. بعد دقائق سمعت صرخة وحشية ثم ذلك العويل المريع. قالت الممرضة: «إنه الصبي قد مات.» ليس الموت ما يثير الرعب، لكنها تلك الصرخة، ذلك العويل الذي يعلن الموت ويميزه عن النوم البريء. إنه العويل، وليس العينين المغمضتين في سلام، ما يوقظ في الذهن الدلالة القاسية للموت. هذا الشخص لن يكون بيننا بعد الآن. سيرقد في حفرة، لن ينهض وينفض عنه التراب، وبعد سنوات لن يكون قد تبقى منه ما يميزه عن آلاف الموتى الآخرين.

ذلك رعب لن تشفيه صلوات الشيخ ولا الشيوخ الآخرين الذين ينتشرون هنا وهناك في أحياء المدينة، أبوابهم مفتوحة أبدا، لا يطلبون أجرا ولا يقبلون هدية. محمود، بياض المواعين، يطرد بحصاتيه السحريتين الخوف عن الأطفال الرضع. يضرب الحصاتين ببعضهما أمام وجوههم فينطلق منها شرر يأتلق لحظة ثم يتلاشى في الهواء. وقد كان محمود رجلا متعدد الحرف، يكسب لقمة خبزه من العمل في دكانه الصغير. كانت أمي تأخذ أواني

النحاس إليه مرة في السنة أو ربما كل سنتين، كلما انحل طلاؤها، ثم تستعيدها وقد اختفت البقع الحمر التي كانت قد ظهرت فيها، وأصبحت بيضاء لامعة. عبثا بحثت في دكانه الصغير عن نار ومعدن منصهر، وبدلا من ذلك رأيت واحدا من فرش القش التي توضع في المهد، يخيطها للأطفال الرضع. ستأتي ربما اليوم أو غدا، امراة تحمله معها إلى البيت.

السيد توحي نؤخذ إليه كلما تورم وجه أحدنا بالنكاف. تقول أمي: «ورم خبيث» وتصحبنا إليه. ندخل بيته فنجده يجلس في الفناء، بين يديه طفل تجلس أمه على مقربة. ننتظر حتى يتم تلاوته، ينفخ في وجه الطفل ثم يربت على كتفه فيعرف الطفل أن دوره قد انتهى.

شرح ابن هشام

كان لعمة لي ابن تعهدت بتربيته وهو طفل. وكان قد بدأ يتعلم القراءة والكتابة وهو في الثالثة عشرة. كان يزور المدرسة الدينية، وفيها تعرف على كتب اللغة فانصرف إليها، قرأها بدأب وتعلم منها الكثير. كانت خزانات الحائط في بيت عمتي مليئة بكتب ثمينة. إلا أن حظه في الرياضيات لم يكن مثل حظه في اللغة. مرة استعان بنا، أختي وأنا، في الإعداد للامتحانات، ووعدنا أن يترك لكل منا اختيار أحد الكتب من مكتبته إذا هو نجح. ولما حان الوقت لاختيارالكتابين قررنا أن نختار اثنين من أثمن كتبه. كان قد وقع اختياري على مروج الذهب، بهرني حجمه الكبير وغلافه المذهب، إلا أن أمي نهتنا عن ذلك واعتبرته استغلالا لا يليق بنا، فصرفنا النظر عن الموضوع برمته. إلا أن ابن عمتي أراد مع ذلك الوفاء بوعده فاختار لنا اثنين من الكتب مما رآه نافعا لنا. حصلت أختي على ألفية ابن مالك وأنا على مجتزأ من شرح ابن هشام، كراس صغير لم تزد صفحاته على العشرين. قرأته بشغف وحفظت ما فيه. وقد أردت أن أجرب ما تعلمته فصرت في كل مرة يكون علي فيها أن أعرب أخاك أو أباك

أحرص أن أكتب أنها منصوبة بالألف لأنها من الأسماء الستة، رغم أنف الكتاب المدرسي الذي لا يعترف إلا بخمسة أسماء. كنت أنتظر في كل مرة أن تقول المعلمة شيئا، لكنها ما اعترضت مرة ولا طلبت مني أيضاحا. وبقي الاسم السادس سرا في شرح ابن هشام. في الفلسفة والمنطق كنت أقل حظا. أظن أن عنوان الكتاب كان «في اللغة والفلسفة وعلم المنطق»، استعرته وأصررت على قراءته رغم أن ذلك القريب نصحني بتركه فهو ليس مما يمكن أن أنتفع به. قرأت الصفحة مرة واثنتين، وأعدت قراءتها ثالثة قبل أن أنتقل إلى الصفحة التالية. عذبت نفسي في قراءة انتهيت منها فلم أكن أوفر معرفة مما كنته حين بدأت. قرأت الكتاب حتى منتصفه ثم أدركت أن لا فائدة من المتابعة. في الصرف والإعراب كنت أوفر حظا و

«إن ينصب الرحمن أو يرتفعا

فالجر في الرحيم قطعا منعا»

أمر لم يكن يصعب فهمه. وقد أردت أن أختبر ما تعلمته فسألت معلمة اللغة في اليوم الثاني عما يصح وما لا يصح في إعراب «بسم الله الرحمن الرحيم» فما استطاعت أن تجيب على سؤالي.

كنت في ذلك الوقت قد يئست من النجاح في بلوغ المستحيل الذي قرأت أسراره خلسة في كتاب للسحر عثرت عليه في أحد أدراج «الصندلية» فما نفعت قراءة سورة ياسين في وقف بندول الساعة الذي ظللت أراقبه دون جدوى، وكنت قد كففت عن

التحديق في النجوم في ليالي الصيف حتى يغلبني النعاس أملا في الكشف عن أسرار التنويم الذاتي وبدلا من ذلك نمت نوما عميقا حتى الصباح. إلا أن الكتابة بعينين مغمضتين لا تنتمي إلى هذا الفضول والتوق إلى المستحيل وقد سبقت ذلك بوقت طويل. بدأت مثلما تبدأ أي محاولة للعب. كنت أختبر قدرتي في الكتابة دون النظر إلى الورقة. وقد وجدت ذلك أسهل مما ظننت، فقمت بتدريباتي في الصف أيضا. كانت المعلمة تملي علينا شيئا، وكنت أكتب دون أن أحول نظري عنها، تسألني: «لماذا لا تكتبين؟» فأجيبها: «بل أني أكتب.» تملي جملة أخرى وثالثة، ألمح قلقها وهي تتابع الإملاء ثم تقترب من قمطري وتلقي نظرة على دفتري، فلا تجد ما يمكن أن تأخذه علي. كان النص الذي أملته مكتوبا كما ينبغي.

اعتدت الكتابة على هذا النحو، وقد وجدتها نافعة فيما بعد. كنت أطفئ النور في المساء، وفي الساعة التي تغيب فيها الأشياء في ظلام الغرفة كانت الأفكار تتدفق فتضيء الذهن. وكنت أستطيع أن أمسك بهذه الأفكار دون مشقة، فاحتفظت دائما بورقة وقلم عند رأسي. لكني دفعت مرة ثمن هذا النزق. كتبت قصة كاملة قبل أن يغلبني النوم، ثم أني لم أجد في الصباح سوى ورقة بيضاء. كان الحبر قد نفد، ولم يكن بوسعي أن أكتشف هذا في الظلام. وقد ضاعت القصة إلى الأبد، فالأفكار التي يزدحم بها الرأس قبل النوم يكون تذكرها في الصباح متعذرا.

محمد قره علي

«محمد قره علي»، ما مر علي هذا الإسم ثانية، ولا صادفت ذلك الكتاب في مكتبة عامة أو في واحدة من مكتبات الأرصفة بعد ذلك. لقد مضت على قراءتي له دهور فما عدت أتذكر أكان سيرة ذاتية أم قصة. لكني أعرف تماما أنه كان جديرا بأن يعجب الطفلة التي كنتها: الصبي الذي يعمل ماسح أحذية مرة وربما صبي نجار أو خباز مرة أخرى، لكنه لا يكف عن قراءاته المسائية تحت مصباح الشارع، تلك القراءات التي ستفتح أمامه بعد ذلك مسالك عريضة إلى النجاح. لكن ألم يكن للمدينة نفسها أبطالها؟ أبطال لم يولدوا في كتاب أو يخرجوا منه، لكنهم كانوا هناك يعيشون حياتهم دون ضجيج.

على بعد أمتار من بيتنا باب يرتفع عن الشارع، يصل المرء إليه على درجات تجعل الطريق أمام البيت أكثر ضيقا. مرة أو مرتين في السنة تأتي إلى هنا عائلة كانت قد خرجت من هذا البيت ذات مرة. نلمح امرأة شابة بثوب هفهاف، تدخل وتخرج مثل فراشة تطير. هذه الشابة القادمة من العاصمة إبنة رجل رويت سيرته في الحي مرة بعد أخرى. مرة مثلا على المثابرة والإصرار

ومرة أخرى مثلا للصداقة الحقة. لقد اتفق الرجل وصديق له أن يسافرا للدراسة متناوبين، وفي السنوات التي يغيب فيها الواحد منهما ينفق الآخر على عائلته. لقد أصبح الرجل يوما وكيلا لوزير أو ما يشبه ذلك.

أولئك الذين جربوا في الأدب كانوا أقل حظا. ذات يوم وقعت في يدي كراسة شعر، لا أعرف أكنت قد استعرتها من صديقة أم من مكتبة المدرسة، لكني وجدت فيها ما أحتاج إليه. استللت منها قصيدة بعنوان «أماه» وحفظتها عن ظهر قلب وقرأتها في الصف بصوت يليق بقصيدة تخاطب الأم. بعد حين عرفت أن الشاعر كان جارا لنا. لكن ما من أحد كان يكترث بالشعر أو الشاعر. كانت أصوات الشعر ترتفع حيية ثم لا تلبث أن تخفت قبل أن تكون قد وجدت مستمعيها. الأشخاص القليلون الذين حاولوا في الشعر ما أفلحوا في تجاوز حدود المدينة. لكن كان للمدينة رسامون، طبيبات وأطباء قديرون، وكان لها مؤرخون. كانت الحياة الثقافية تتحرك في مكان ما دون ضجيج. وفي زقاق ضيق أرضه مبتلة تتدلى لافتة منسية لجريدة لا شأن لأحد بها. وعلى بعد خطوات منها تتدلى في الجهة المقابلة لافتة لجريدة أخرى. بين حين وآخر كانت الحياة الثقافية تمنح لمساتها الرشيقة لمعرض أو مهرجان، فتسير في شوارع المدينة رؤوس هائلة مطلية بالجبس، تشكلت في مرسم لمدرسة بإشراف أحد الفنانين، وكانت هذه اللمسات تضيع في البهاء الذي يسم المدينة بأكملها حينذاك. أما الفنان فيتابع عمله دون ادعاءات ودون أوهام.

أرض ليست لي

خلف محطة القطار ثمة حي لا تسيج منازله جدران، وإنما أسوار من الآس أو أسيجة كثيفة من ورد متسلق، تشابكت أغصانه حتى بدا مثل دغل. كانت الفتيات اليافعات يستخدمن ورداته الصغيرة الغضة كأقراط، أما البراعم الفتية المكتنزة فكن يسلخن قشرتها الخشنة ويأكلن قثاءها الطري الشاحب. كانت هذه البيوت التي لا سياج لها تسحرني. حاجز وحيد من قضبان حديد خضر تتكاثف خلفه شجيرات الدفلى على طول الشارع القصير أمام محطة القطار فتحجب الرؤية خلفها. نجتاز قاعة المحطة ذات القبة الزجاجية ونخرج من أحد أبواب ثلاثة، باب يفتح في الصباحات الباكرة عند وصول القطار القادم من بغداد، يقف عنده مفتش يلقي نظرة أخيرة على بطاقات سفر الداخلين. كان المرور في تلك القاعة يمنحنا غبطة لا حدود لها. كنا نتأمل واجهة تلك البناية ونحن نقترب منها، نمر بأحواض زهورها البهية، نرتقي درجاتها القليلة العريضة ونمر بين أعمدتها الراسخة المنحوتة من صخور الجبال. لا ريب أن أهل المدينة على حق إذا ما رددوا في هذه المناسبة أو تلك أن لمدينتهم محطة ليس للعاصمة مثلها. خلف

القاعة يمتد رصيف المحطة الذي يرتفع أكثر من نصف متر عن الأرض وحيث ينتهي الرصيف ليس ثمة شارع وإنما شريط من الأرض لا يكاد يمر منه إنسان، يتابع فيه العشب دورته فيرتفع غضا بهيا مع أول أمطار الربيع، ثم لا تلبث حرارة الصيف أن تجففه فيمنح الأرض لونه الذهبي، لون عشب جاف. من خلال القضبان الخضر التي تفصل هذا الشريط عن البيوت كنا نستطيع أن نمد أيدينا ونقطف واحدة من أزهار سنط اسطنبول من شجيراته الكثيرة التي زرعت في صف طويل على طول السياج. غير أن هذه الزهور التي لا تشبه زهورا ولا تضوع بعبق الزهور ما كانت تغري بقطفها. كنا نتفحص أسديتها الحمر الطويلة تتدلى مثل خصلة من حرير، ونراقب البقلات التي تخلفها وراءها وقد ذبلت.

حين طلبت المعلمة منا أن نجمع أوراقا وأزهارا نجففها، كان ذلك ذريعة للقيام بهذه المغامرة والذهاب إلى هذا الحي البعيد الذي ما كنا قد رأيناه إلا من خلف ذلك السياج. فمن أين نحصل على الزهور وفي بيتنا ليس سوى أوراق التوت والعنب والرمان. تركنا أنفسنا، أنا ورفيقتين لي، نضيع في دروبه الضيقة ومسالكه المتشعبة الكثيرة، قطفنا ورقة تتدلى من خلف سور آس أو عشبة غريبة تنبت على جانب الطريق. لكن الأزهار كانت بعيدة المنال، كانت تنبت هناك في الحدائق، نراها خلف أسيجة الآس الواطئة، قريبة على بعد أمتار منا ولكن لا سبيل إليها. كدنا نقنع بالحصيلة المتواضعة التي جمعناها حين رأتنا امرأة خلف سياج حديقتها. ما كان بوسع امرئ أن يخطئ خطواتنا التائهة في هذا المكان الذي لا

يدخله غريب. فتحت المرأة لنا بابها، ودعتنا لنقطف من زهور حديقتها ما نريد. لقد كوفئ بحثنا المخلص عما هو جديد، فزينت زهرة الربيع والسوسن الخضرة التي كنا قد جمعناها. أضفنا إليها نباتات لا تنمو على حافات الطرق، نباتات تحتاج إلى يد خبيرة تعنى بها. ولم يكن فرحنا أقل ونحن نقلب دفترا زينته زهرات ملونة جفت واستوت تحت ورقة السيلوفان وأوراقا تمتد واحدتها على كامل الصفحة، أوراقا مسننة، أوراقا مفصصة، أوراقا عريضة وأخرى دقيقة، ولم يكن مأخذا أن لا نعرف أسماء كل تلك الأصناف. السوسنات وحدها لم تجد مكانا في ذلك الدفتر، كانت أكبر من أن تحتويها صفحة وأسمك من أن تضغط بين أوراق كتاب. كانت أوراقها الصفر تتغضن وتنكمش ولا يبقى منها إلا ساق اسود لونها، لا يمكن التعرف فيها على الزهرة التي كانتها. الأزهار الكبيرة، عباد الشمس، الخطمى والسوسن لم تكن لتثير فيّ الفضول الذي تثيره زهيرة صغيرة أصادفها على غير انتظار ضائعة في حقل قمح أو وسط دغل. الزهور الكبيرة تعلن عن نفسها في فجاجة، تبدو وكأنها استكملت نموها في عجالة. لقد أحببت أكثر منها الزهيرات التي لا أسماء لها، تتابع دورتها دون تدخل من أحد، ربما تفتحت وذوت دون أن تقع عليها نظرة إنسان. لقد رأيت أزهارا تتنكر في خضرة باهتة، هي خضرة الأوراق المحيطة بها. ما كان لشخص عابر أن ينتبه إليها. أحببتها حبا لم أبرأ منه بعد ذلك. ها قد مر أكثر من عشرين سنة وكنت قد زرعت في حديقة المنزل التي لا تزيد مساحتها عن عشرين مترا كل

ما أحببته من النباتات. كانت نباتات المخملية قد تشابكت فغطت المساحات الرملية بين شجيرات البرتقال بخضرة داكنة، وكانت تعد بزخرفة عظيمة من زهور صفر برتقالية ذات أشعة تنبثق من الوسط وتنتشر في غير انتظام في الزهرة الصغيرة الكثيفة. كنت لا أنفك أمد يدي فأتناول ورقة أو زهرة منها، أدعكها وأشم ذلك العطر الأخاذ الذي يخضب أصابعي، نبتتا ديباج ارتفعتا قدما عن الأرض، لؤلؤية نقلتها من منزل إلى منزل، من تراب إلى تراب، قرنفل صيني ظل يغريني بالاحتفاظ به طيلة شهرين، كلما هممت باقتلاعه سطعت أمامي عشرات الزهيرات، بيضا، وردية، حمرا مشعشعة، فأقرر الاحتفاظ به أسبوعا آخر، زنبقة مريم، بيضاء حيية تكاد تضيع في كثافة ما حولها، زنابق أخرى تنام تحت خضرة النباتات، تنتظر موسم إزهارها، نبتة من أزهار القش المتأخرة، النبتة الوحيدة التي استطاعت أن تعيش من بين رفيقات لها تأخر غرسهن. لقد مضى الصيف، الموسم الذي تنبثق فيه هذه الزهور الحرشفية ذات الألوان المتعددة من خضرة باهتة، فإذا اكتمل تفتحها فلن تذبل بعد ذلك. يمكن للمرء أن يقطفها ويحتفظ بها سنة أو سنتين قبل أن تلامسها يد فتتفتت هذه الحراشف التي لا تكون قد فقدت سطوع ألوانها الباهرة. ما استطعت أبدا أن أتلاءم مع حرفة الفلاح، فقد كنت أحتفظ دائما بنباتات تجاوزت موسمها، وأشفق من اقتلاعها ما دامت تتألق بزهور جديدة كل يوم. وأحببت حتى العشبة الغريبة التي تنبت بين الزهيرات. أفتح الباب ذات يوم فأرى عشرين مترا من العطر والألوان تتكوم في

فوضى عند البوابة الحديدية، تكشف عن أرض بدت قبيحة في عريها، وأطفالا يجرون أغصانا مزهرة وراءهم. تعتدل المرأة التي كانت تجتث جذورا امتدت عميقا في التراب حين تسمعني، وتمنحني ابتسامة مرائية. إنها مالكة المنزل الذي أقيم فيه، ولم تجد ما يستحق الايضاح سوى أن تعتذر: «ظننت أنني لن أجد أحدا في المنزل فلم أقرع الجرس.»

لقد زرعت أزهاري في أرض ليست لي، وهؤلاء الغوغاء لا يستشعرون بهجة الملكية إلا بالحيازة المطلقة. كان هذا في مدينة أخرى، في بيت غير بيت الطفولة الأليف وزمن غير زمنها.

لقد دأبت أستنبت شجيرة من بذرة ثمرة أكلتها، وأرعى عشبة نبتت من بذرة أيقظها الضوء فوق التربة، فوجدت نفسها في أصيص للزهور. تقول جارتي الأندنوسية: «إن لك يدا خضراء». ثم تشرح لي: «نحن نقول ذلك في أندنوسيا لشخص تزدهر بين يديه النباتات. الأمر بالنسبة لي غير ذلك. لقد ذبلت الخزامى التي أعطيتنيها.» وكنت قد تعلمت خلال ذلك أن النبتة التي نغفلها ونتعب من رعايتها، من تفقدها والمرور بأصابعنا فوق أوراقها، تتوقف عن النمو، تضمر وتموت.

تعاقب الفصول

لم تعد شجرة التوت العظيمة تخبئ شيئا من ثمارها، سوى ثمرة فجة هنا وأخرى بقيت عالقة في غصنها أو تخفت خلف أوراق بهتت خضرتها. لقد نفضت الشجرة أوراقها وكانت قبل ذلك بوقت قصير قد استقبلت ضيوفها الموسميين. كنا نفتح أعيننا في الصباحات الباكرة، ونلقي نظرة عبر باب علية الدار، فنرى مئات من الزرازير، سودا مرشوشة بنقط بيض تجثم على الأغصان التي لم تتعر تماما. كانت تبدو من باب العلية قريبة موازية لأنظارنا. لكن الخريف قد تقدم، وكنا قد كنسنا خلال أسابيع متوالية الأوراق الشاحبة التي كانت تفرش أرض الفناء كل يوم. الآن ليس ثمة ثمار تبقع الأرض بحمرتها الداكنة إذ تسقط ولا أوراق تغطي حفيرات الأرض، ولكن بقع بيض هي براز العصافير التي ما برحت تتخذ من الأغصان العارية مسكنا لها. بين حين وآخر كنا نعثر على بيضة سقطت من عشها فتحطمت أو عصفور صغير سقط لحظة غادر بيضته فمات، قطعة لحم اجتمعت عليها مملكة من النمل. ولكن كانت هناك أيضا الحبة الخضراء وقد تعرت من قشرتها الدسمة، حبات بنية صغيرة، حملتها العصافير من مكان قصي، من شجرة لم نرها.

كانت المدينة قد استبشرت بأمطار آذار التي تعد بمحاصيل وفيرة وأقلقتها الأمطار المتأخرة. وفي الأشهر اللاحقة، بعد موسم الحصاد كانت أسعار القمح هي ما يشغل ربات البيوت. ثم حل الصيف فتحولت المدينة إلى مملكة نمل. لقد اشترت كل عائلة قمحها. غسلت أمي القمح وفرشته على سطح الدار، ومكثنا أختي وأنا نحرسه من غزو العصافير. وقد قتلنا ضجر الانتظار باللعب، فنصبنا خيمة من عصي وملاءات بيض وأخذنا معنا ماءنا وشيئا نأكله. وفي أيام أخرى جلسنا حول صينية أفرغت فوقها كومة عظيمة من العدس، فدأبنا نلتقط منها الحجارة والزؤانة حتى تصلبت ظهورنا، وفرحنا بيوم السليقة كأننا نستقبل يوم عيد. فمكثنا نراقب النار تؤجج تحت قدر عظيمة سوداء. انتظرنا نضوج القمح فنقلناه إلى السطح لنفوز بحصتنا من تلك الحبات الأكثر نضجا والتي لا يمكن الحصول عليها إلا إذا أوشكت القدر أن تفرغ مما فيها. وفي اليوم الثاني راقبنا الحبوب تجف وتتغضن في حرارة الشمس. في أسابيع الصيف الأخيرة تظل ربات البيوت في تأهب دائم، فقد يمر في أي يوم رجل ينادي معلنا عن قدوم ماكنة الرشتة إلى الحي. تتعاقب عليه الطلبات فينتقل من منزل إلى منزل. تأتي نساء عريضات الأكتاف قويات فيعددن العجينة التي ستدخل الماكنة كتلا كبيرة وتخرج منها خيوطا تقطع كلما بلغت أطرافها الملاءة المفروشة على الأرض فتنشر على الحبال أو على ملاءات بيض نظيفة حتى تجف.

سنذهب أختي وأنا، لنحدد مع صاحبة «الجافوف» موعدا،

اليوم أو غدا. نختصر الطريق. نوفر على أنفسنا المضي في الطريق الذي يقودنا عبر الشارع الذي تكتظ على جانبيه الدكاكين، نمضي في الاتجاه المعاكس حتى نبلغ الطريق القصير المسدود الذي لا يبعد كثيرا عن بيتنا، ثمة بقية من جدار ترتفع مترا عن الأرض، نتسلقها ونقفز إلى الجهة الأخرى، أحيانا كنا ننظر بتوجس في ظلمة الغرفتين المتبقيتين من تلك الدار من خلال ثقوب كانت ذات يوم نوافذ، فلا نتبين شيئا في العتمة. ما تبقى من ساحة الدار لم يعد سوى أرض يغطيها العشب فتطغي خضرته على الحجارة التي يرتفع بعضها هنا وهناك. نترك الخرابة ونمضي بضعة أمتار فنكون قد وصلنا. ندخل فنرى المرأة تضع حطبا في الموقد أو تخرج رمادا منه. موقد مغلق يشبه تنورا، يغذى من فتحة صغيرة في مقدمته، أقيم فوقه حوض كبير من فخار. ستحمص خيوط العجين التي كانت قد جفت في هذا الحوض وتخلف سويقا كثيرا هو ما يطمع فيه الأطفال. نلتهمه فنشهق به أو يلتصق في أفواهنا.

يقترب الصيف من نهايته، في هذا الوقت تكون الكوائر وبراميل المؤنة قد امتلأت بالحبوب. الخريف على الأبواب، تسبقه الأمطار الأولى. أمطار أيلول ليست سوى دعابة، رشات خفيفة من رذاذ توقظ الناس من نومهم عند الفجر فيحمل كل فراشه ويسرع بعيون نصف مغمضة هابطا إلى الغرف ليتابع نومه. لقد عرفت هذه الأمطار التي لن تستمر سوى دقائق، أسحب الغطاء فوق رأسي وأصغي إلى ضربات الماء الخفيفة عليه. لم تبق سوى ليال معدودة نستطيع فيها أن نتابع تأمل النجوم والبحث عن

الدب الأكبر كل ليلة وانتظار شهاب يهوي، نقطة ضوء تفر من موضعها ترسم خطا من نور ثم تنطفئ.

إذا انتصف الخريف، وكانت كل عائلة قد أكملت إعداد مؤنتها من الحبوب، لم يبق سوى البصل، يشترى منه ما يكفي حتى الموسم القادم ويوضع في سلال. ثم يقترب الشتاء وتهدأ مملكة النمل. ستخلد المدينة إلى الراحة، وتأنس بليالي البرد في سلام عائلي. ستقضي أمي أمسياتها في حياكة الصوف، إلى جانبها حق من الحبة الخضراء، تكسرها بأسنانها الصغيرة القوية. حين يقترب المساء وتكون قد أوشكت أن تنتهي من إعداد العشاء، نملأ المنقل بالفحم، منقلا مستديرا من معدن ثقيل، لمقبضه شكل ورقة تين، نشعل النار فيه ونمكث نرعاها وفي أيدينا مروحة صغيرة، ننتظر حتى يسكن اللهب الأول، ثم نحرك المروحة فتتوهج شعلة صغيرة من وسط الفحم. نراقب الفحمات التي بدأت أطرافها تفقد سوادها وتشتعل بحمرة الجمر، نتابع عملنا الدؤوب فتتحول قطع الفحم إلى جمرات مؤتلقة، حتى إذا لم يبق أثر للهب حملنا المنقل إلى الغرفة ووضعناه فوق منضدته الصغيرة المربعة. بعد العشاء يحل الهدوء في البيت. لقد انتهت أمي من عمل نهارها الطويل، وجلست بيننا تحوك الصوف. أما نحن فقد فرحنا بالبلوطات نشويها على الجمر، نضعها في النار ثم نراقبها بتوجس. بين حين وآخر تفرقع بلوطة وتطير مثل سهم في فضاء الغرفة. نرفع البلوطات بالملقط وننتظر أن تبرد قبل أن نشرع بنزع قشرتها التي أفقدتها النار صلابتها. ليست البلوطات نفسها ما كان يبعث فينا الانشراح ولكنها تلك اللعبة.

أصوات

نفتح عيوننا في الصباح الباكر، الحي لا يزال يتابع نومه، إلا أنه صخب العصافير، استيقظت مبكرة فأيقظتنا. بعد قليل سيفيق الجميع وتختلط الأصوات ببعضها، أصوات أليفة لأطفال يلعبون، نداء أمهات يدعون الأبناء لفعل هذا والكف عن ذاك، دقات ساعة الحائط تتتابع، دقة قصيرة كل نصف ساعة، ثم إذا اكتملت الساعة توالت الدقات، نعدها فنعرف الوقت دون أن نغادر الزاوية التي نلعب فيها، أصوات باعة متجولين يعلنون عن بضائعهم الصغيرة، صوت فاختة نسمعه في فسحات الهدوء ثم ننساه، إلا أن الطائر يبقى على الشجرة أغلب النهار. العصافير تصبح أقل صخبا في طيرانها وهبوطها المستمرين. لكننا ننتبه ذات يوم إلى صوت نداء غريب في مكان ما من الحي، نصعد الدرجات الكثيرة إلى السطح، نرى رجلا على أحد السطوح يفرد كفيه أمام أذنيه ويصيح بكلام لا نفهمه. نجري إلى أمي ننقل إليها هذه الصورة التي لم نر مثلها فتخبرنا أنه المنادي يعلن عن بيع البيت. ولكن لماذا يفعل؟ تخبرنا أمي أن ذلك إنما لإبلاغ من له حق في الشراء، فإذا أراد الجار أن يشتري البيت فهو أحق به من الغريب. لم يتكرر مثل هذا

النداء فيما بعد، ولكن كنا نسمع بين حين وآخر من يطوف في الحي مناديا: «يا سامعين الصوت صلوا على النبي. . . أولهم محمد آخرهم علي، من وجد كذا وكذا. . .» وقد كان يثير فضولنا أن نعرف ما هو الشيء المفقود. مؤذن رمضان كان أكثر ألفة. كنا ننتظره كل مساء على سطح الدار. نجلس هناك وأنظارنا مثبتة على تلك القبة، يحيط بها سطح ضيق، ولا يرى من السلالم التي تؤدي إليها سوى الدرجات الثلاث الأخيرة.

أحيانا كنا نصعد إلى السطح فنجد المؤذن يجلس مسندا ظهره إلى القبة وأحيانا نكون قد سبقناه، نبحث عنه فلا نجده. ننتظر بلهفة، ثم نراه يظهر، يدور حول القبة قبل أن يقرفص مسندا ظهره إليها. نراقب الشمس تهبط ببطء وراء البيوت، أحيانا لا يكون قد تبقى منها سوى خيوط ضوئها الأخيرة، فنعرف أنه لم يتبق على موعد الأذان سوى وقت قصير، ربما ثوان قليلة. نرى المؤذن ينهض فتخفق قلوبنا، لكنه بدلا من أن يشرع بالأذان يتمشى جيئة وذهابا. نراقب خطواته، نتوقع أن يقف في أية لحظة ليفرد كفيه أمام أذنيه ويشرع بالأذان، لننطلق في هذه اللحظة بأسرع ما نستطيع هابطين، لنبلغ العائلة التي كانت قد أعدت كل شيء وجلس أفرادها أمام المائدة ينتظرون.

صبي تحت الشجرة

نذهب لزيارة جدتي لأمي، بيتها بعيد نصله بعد رحلة طويلة مرهقة، نغادر الباص عند التلة التي ترتفع ارتفاعا حادا حيث يقوم مسجد النبي يونس، بناية بيضاء صغيرة مثل علامة فارقة، تتحد بالتلة فتبدوان مثل صخرة بيضاء هائلة. للمدينة مساجد وأضرحة في كل زاوية وكنائس أيضا. أما الأديرة فكانت تقوم خارج المدينة، تنام وتستيقظ في سلام الحقول: مار كوركيس، الشيخ متي، دير في الحمرا يقودنا الرهبان فيه إلى الجب، نستضيء بنور الشموع لنتعرف على موقع أقدامنا. الحمرا قرية استحقت هذا الاسم بسبب حمرة تربتها. أينما ذهبنا يقودنا رهبان يروون لنا تاريخا حافلا بالصراعات. يشير الراهب إلى سرداب يمتد على طول الساحة تقوم فوقه الغرف متحدثا عن جماجم ملأت السرداب في عام كذا وكذا، يأتيني صوته متقطعا من خلال حشد من رفيقاتي اللاتي أحطن به فلا أمسك بتفاصيل الرواية، في القاعة الكبرى يتحدث عن اللوحات الكبيرة القديمة التي لا يجدها المرء في كل مكان، وفي المكتبة عن الكتب والمخطوطات النادرة التي يمتلكها الدير، ثروة هائلة ليس لها بريق الذهب ولكن ضوء المعرفة.

الأنبياء أنفسهم سكنوا مرة أخرى في المدينة، قريبين إلى الناس ومشاكلهم، النبي شيت، النبي جرجيس وقد اتخذ اسما آخر ومسكنا آخر، الخضر، يقوم مسجده على النهر تماما، مبنى متواضع وساحة ترابية يسورها جدار واطئ ينساب خلفه ماء النهر. منها راقبنا ذات عام مياه الفيضان التي أغرقت بيوتا كثيرة على الطرف الآخر وحملت كل ما صادفها في طريقها. فوق الماء الكدر الذي يمضي بعجالة لم نعتدها جرذ مذعور ينكمش فوق عش يحمله في رحلته النهرية التي لا هدف لها.

الخضر أحب الأنبياء إلى نفوسنا نحن الأطفال. حين تنبثق البراعم الغضة من خشب الأغصان التي بدت يابسة في سباتها، وتنتشر في الجو تلك الرائحة الرائعة، رائحة اليقظة، رائحة الربيع، نعرف أن عيد الخضر يقترب. في يوم ما ستغرق المدينة بالمن والسلوى، بأقراص حلوى مرشوشة بالسمسم، حلاوة الخضر، وسنحصل على نصيبنا منها.

نصل بيت جدتي، واحد من صف من البيوت في مواجهة تل يأتلق بشقائق النعمان في الربيع. لكنه الصيف ونحن، أختي وأنا، جئنا نحمل رسالة من أمي. لن نمكث طويلا. سنبلغ جدتي الرسالة ونعود. سنقتسم أختي وأنا الكلام كما اعتدنا أن نفعل دائما، تبدأ هي، وحين تبلغ موضعا اتفقنا عليه تتوقف دون أن تتم جملة بدأتها فأتابع أنا الكلام. ندخل البيت، تحت الشجرة صبي يستظل بها من حرارة الصيف، يقرأ كتابا، ليس قصة أو رواية، لكنه واحد من الكتب المدرسية التي سيكون عليه قراءتها في

الصف التالي. نحن كنا قد تحررنا من كتب المدرسة إلى حين. ما أن انتهى الامتحان وبدأت عطلة الصيف حتى مزقنا الدفاتر والكتب وحملنا أوراقها إلى البقال. لم ننتظر حتى ظهور نتائج الامتحان. كان الصبي قد استعار بعض هذه الكتب واشترى بعضها الآخر. سيحفظ ما فيها قبل انتهاء الصيف، وسيذهب إلى المدرسة بعد ذلك مسلحا بمعرفة لا يتفوق فيها عليه أحد. سيكون الأول في صفه كما كان في العام الذي انصرم والعام الذي قبله. كانت أمي تضرب به مثلا كلما حثت أحدنا على الاجتهاد. لكن ذلك الصبي أصبح معلما فيما بعد. عطلات اللعب المضيعة، وذلك العمل الدؤوب لم يعط إلا ثمرة متواضعة. إنها لقصة محزنة. أحيانا يسخر الفقر من محاولات مغادرة مملكته الواسعة. بمرارة أيضا أتذكر رفيقة لي في المدرسة. كانت الأكثر اجتهادا بيننا جميعا. لم تكن تضيع دقيقة واحدة من وقتها ولم يكن في حياتها متسع لشيء غير الكتاب المدرسي. كوفئ اجتهادها فكانت الأولى فينا، إلا أنها لم تستطع أن تتابع دراستها لأن الاجتهاد المفرط كان قد أضعف بصرها. رأيتها آخر مرة وقد وضعت على عينيها نظارة سميكة ضاعت خلفها ملامح الصبية التي كانتها، ثم تفرقت بنا السبل فما رأيتها مرة أخرى.

أبواب المدينة

ما من مكان بعيد، تمتد المدينة حولنا شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، ولكن ما من مكان بعيد لا يبلغه المرء على القدم. أبواب المدينة لم يبق منها سوى أسمائها، حملتها الأحياء السكنية التي أقيمت حيث كانت هذه الأبواب: الباب الجديد، باب البيض وباب لكش. باب الطوب وحده ظل عالما خاصا، عالما لا تهدأ فيه الحياة، شوارع عريضة تتقاطع مع بعضها، أسواق على الأرصفة، نساء يبعن حطبا، بيضا، دجاجا، جوارب من الصوف كن قد انهين حياكتها في ليالي الشتاء الطويلة، ليف للحمام، أحذية مستعملة، وكل ما يخطر على البال. الدكاكين تتجر بكل شيء. أسواق ذات سقوف تبيع الخضر واللحوم، أسواق تبيع الجلود، وفي مكان ما يفتح «الخان» بوابته الكبيرة التي تقود إلى ساحة يحيط بها رواق، تفتح فيه الدكاكين أبوابها الضيقة، دكاكين تبيع الأقمشة وأغطية الأسرة والعباءات. في مكان ما من الرواق ثمة سلم يقود إلى الطابق الثاني. على طول الرواق علقت معاطف كويت للتو، ملابس قديمة تثنت وانكمشت في رحلتها الطويلة من مكان ما في هذا العالم، أخرجت من رزمها الكبيرة وأعيد إليها

رونقها. من موضعين أو أكثر في الرواق ينبعث بخار كثيف لا يرى مصدره، تحجبه الملابس المعلقة في كل مكان. لا بد أنه يأتي من مكان ما في الغرف المحيطة بالرواق، حيث يجري العمل على قدم وساق. لقد اشترت أمي عباءتها الجديدة، وتثبتت من أنها تسعة أمتار وليس أقل من ذلك، ولم يبق لي إلا القليل من الوقت لتأمل هذا العالم الذي بدا لي لسبب ما مثيرا وغريبا. مرافقة أمي إلى هذه الأسواق كانت بالنسبة لي مغامرة فريدة. الساحة الفسيحة، الناس المنشغلون بالبيع والشراء والمساومة، ضجيج السيارات والحمالين، وذلك التشعب الهائل للطرق الذي يبدو الاهتداء فيه مستحيلا. نمضي على الرصيف في جانب من الساحة الكبيرة وقد خرجنا من أحد الأسواق فينفتح أمامنا فجأة سوق آخر مثل مغارة هائلة، سوق للخضار أو للجلود يضيء النهار مدخله، أما الدكاكين الكثيرة المتراصة على جانبيه فتغيب في العتمة. لم أحتفظ بالذاكرة إلا بصورة مقاطع من هذه الطرق، لا أعرف أين تقع في تلك الخريطة الهائلة ولا أي الطرق يؤدي إليها. رصيف مترب تعرض فيه نسوة بضائعهن الصغيرة، في الجهة المقابلة يفصل الرصيف عن المقبرة التي ترتفع خلفه، جدار يمكن أن يرى المرء من فوقه شواهد بعض القبور، سوق القزازين يتخفى في مكان ما، صحبني إليه أبي مرة. ممر طويل مسقوف بنيت على جانبيه دكتان مفروشتان بالبسط الملونة، هي امتداد للدكاكين الصغيرة المتشابهة القائمة على جانبيه. الباعة يجلسون على هاتين الدكتين وسط وشائع الحرير الملونة، يتبادلون الأحاديث، بعضهم

يصلح خيوطا اشتبكت ببعضها فيما يعيد بعض آخر تنظيم بضاعته. بين الدكتين ممر ضيق لا يزيد على نصف متر. الزبائن قليلون، يعرفون ما يريدون شراءه. إنه ليس سوقا يمضي فيه المرء على مهل يلقي نظرة هنا أو يفحص بضاعة هناك، إنما يشعر المرء فيه أنه مرصود مثل حيوان يمكن أن يقع في أية لحظة في فخ يترصده في مكان ما. حين خرجنا من ذلك الدهليز إلى النور، رأيت الدكاكين القليلة التي كانت تبيع النمنم. من أحد هذه الدكاكين كان أبي قد اشترى لي مرة كيسا من النمنم كنت قد رغبت في الحصول عليه. احتفظت بذلك الكنز سنوات، اختلطت خرزاته من جميع الألوان فعدت وعزلتها، ثم ما لبثت أن اختلطت ثانية. كنت قد رغبت في شيء من هذه الخرزات الملونة الصغيرة فحصلت على كمية ما كنت أحلم بها. جربت أن أصنع منه أساور وقلائد فما أفلحت إلا قليلا، لكني بقيت أخرجه من كيسه وأعيد التجريب سنة بعد أخرى وكان ذلك يمنحني غبطة لا حدود لها.

أبواب مغلقة

شارع الفاروق لا نبلغه إلا وقد قطعنا عوجة النصارى ومررنا ببيوت متواضعة تتكوم عند أبوابها قشور نارنج معصور وتنبعث منها رائحة أسماك تقلى، فاختصرنا بذلك الطريق المار من خزرج. شارع مثل شوارع أخرى في المدينة، لا ينساب مع تموجات الأرض، يجاريها في ارتفاعاتها وانحداراتها، وإنما يشق الأرض باستقامة، يخترقها مثل سهم تاركا على جانبيه هضبتين تقوم عليهما البيوت، تتشعب فيهما الأزقة والطرق، أكثر ارتفاعا من تلك التي تقوم على جانب شارع ابن الأثير والشارع الذي يصل باب البيض بالباب الجديد. بيوت يبلغها المرء مرتقيا درجات كثيرة بنيت هنا وهناك أو حفرت في تراب الأرض. لقد حفرت الجرارات خلال شهور كثيرة آلاف الأطنان من التراب فاستوى الشارع عريضا مكشوفا للضوء وحرارة الشمس المحرقة. كنا إذا ذهبنا لزيارة خالتي نقطعه حتى نكاد نبلغ نهايته. نبلغ منه مقطعا تصبح فيه البيوت أقل التصاقا ببعضها. على يمينه تنحدر الأرض قليلا فينحدر أيضا جدار أصم يقوم فيه باب كبير مغلق أبدا، قبل أن ينعطف في زاوية قائمة، واحد من بيوت الأغنياء التي لا تترك

أبوابها مفتوحة، أبوابا كبيرة قبيحة تقوم في جدران تخفي وراءها حياة لا تكشف أسرارها. على المنحدر قبالة الجدار حديقة مسورة بجدار واطئ، يرتفع سوسنها فيبلغ حافة ذلك الجدار. بين حين وآخر نرى بستانيا يسقي زهورها، الإشارة الوحيدة على الحياة وسط ذلك الجفاف، في حرارة الصيف القاتلة وحجارة الجدران والأرض التي لم يرصف منها إلا أمتار قليلة تنتهي عند ذلك الباب. نمر بآخر البيوت المتصلة ببعضها، بيت عتيق صغير زرعت أمامه شجيرات سيسبان وعباد الشمس، ترتفع بينها شجرة تمر هندي، ربما كانت الشجرة الوحيدة في المدينة. نتأملها في دهشة، فلم يزد حجم الشجرات التي نبتت في حديقتنا على بضع بوصات. محاولاتنا الكثيرة لاستنبات شجرة من تلك النويات الصلبة التي لم تقو أسناننا على كسرها أخفقت مرة بعد أخرى. كنا ندفن النواة في التراب ثم نعود فنكشف عنها التراب بحثا عن برعم صغير فلا نعثر عليه. لكننا اتخذنا من تلك النويات التي يمنحها لونها الأحمر الداكن وسطحها الصقيل البراق سحرا، أداة للعب. وكنا نكتشف بين حين وآخر نبتة انبثقت من بذرة كانت قد سقطت منا أو كنا قد نسيناها مدفونة في التراب.

نجتاز ذلك البيت، تستوي الأرض بعد ذلك، وتتناثر البيوت منفصلة عن بعضها. ننعطف يمينا فنجد ذلك البيت الأبيض أمامنا، كتلة مكعبة بيضاء ترتفع عن الأرض، مثل واحد من قصور الأساطير. نتجاوزه ونمضي إلى نهاية الشارع القصير الذي لا يزيد عدد بيوته عن الستة حيث بيت خالتي، آخر البيوت، بابه كبير

يبقى مواربا في النهار، تقوم خلفه ستارة ذات صفوق ثلاثة، واحد من بيوت الأغنياء القليلة التي تترك بابها مفتوحا. خلف حديقة البيت الواسعة ليس ثمة بيوت، ولكنها صخور الشاطئ. كنا نصعد إلى سطح الدار أحيانا فننظر إلى النهر يمتد أمامنا، أو نلعب في القسم الخلفي من الحديقة، نتأمل شجرتي الفستق تتدلى منهما عناقيد كثيرة. مرة كل عامين تعطي هاتان الشجرتان ثمارا وفيرة. أما الأشجار الأخرى فلا تثير فضولنا، وشجرة اللوز التي ترتفع في زاوية من حديقة الزهور لا تعطي ثمارا، نعثر أحيانا على لوزة خضراء سقطت على الأرض، نشقها في منتصفها فلا نعثر في داخلها إلا على قشرة بيضاء، لكنها تلك البراعم الخضر التي تلتف على عمود النور في وسط الحديقة فتكاد تبلغ المصابيح الثلاثة التي تتشعب منه، تتدلى منها عناقيد من زهور بيض وبنفسجية كأنها القناديل. إذا انتصف النهار ودعينا للغداء تقترح خالتي وقد لاحظت أننا لا نأكل إلا قليلا وظنت أنه الخجل وحده يمنعنا من الأكل، أن نتناول غداءنا في غرفة أخرى. نجلس أنا وأختي أمام المائدة، نقتطع قضمة صغيرة نأكلها، ونأكل من كأس المحلبية ملعقتين وننتظر. حين تأتي خالتي لترفع المائدة وتلاحظ أننا لم نكد نأكل شيئا تلومنا على ذلك. إلا أننا نشعر بالرضا فذلك ما كنا قد تعلمناه في دروس التربية الطويلة التي تلقيناها في البيت.

حين يحين الوقت للعودة تقطف لنا خالتي باقة كبيرة من الزهور، ورد جوري غض وزهرات داليا كبيرة، كان يبهرني فيها تنوع ألوانها الكبير وذلك الانتظام الهندسي البديع في أوراق

تاجها. نحمل الباقة معنا ونمضي في طريق العودة، نقطع شارع الفاروق ثانية، ذلك الشارع الذي سنقطعه في سنوات تالية كل يوم في الطريق إلى المدرسة. كنا قد أدينا الامتحانات في المتوسطة القريبة والتي ستكون فيما بعد مدرستنا، وكنا قد أحببنا ذلك الطريق القصير بين أشجار الفستق، الذي كان علينا أن نقطعه قبل أن نبلغ باب المدرسة. إلا أنني لم أذهب إلى تلك المدرسة إلا في الأيام الأولى، بضعة أيام وحسب، حيث رأت أمي أن أذهب إلى مدرسة أخرى حيث تدرس أختي. كنا نقطع شارع الفاروق ثم نصعد عبر درجات كثيرة ضيقة إلى تلك الهضبة على يساره ونمضي في الزقاق الذي تقوم فيه المدرسة. كنت في ذلك الوقت في السن التي يصعب فيها التصالح مع العالم، مع أخطائه وشروره المستعصية، وقد ظننت أنني أعرف الطريق لإصلاحه وأنها النبوة قد أدركتني. غير أني بعد شهور نسيت الرسالة التي كنت قد ظننت أنني مكلفة بها ووجدت رفيقات لعب جديدات. ثم أني ما لبثت أن أحببت ذلك السرداب الذي يمتد على طول ضلعين متجاورين للساحة الكبيرة والذي أصبح ملعبنا المفضل، نختبئ خلف أعمدة المرمر التي تنتظم في وسطه ونجري، نحاول الإمساك ببعضنا.

حرير وأغنيات

غير بعيدة أيضا الحمامات التي تفتح أبوابها منذ الصباح. من باب صغير منخفض كأنه ثقب يخرج رجل مصبوغ بالسواد، ملابسه، يداه ووجهه، مثل عفريت خارج من واحدة من حكايات ألف ليلة وليلة، نفتح أعيننا دهشة فتقول أمي:

«إنه الوقاد.»

«الوقاد؟»

«إنه يشعل النار لتسخين الخزان الكبير للحمام.»

لا بد أن يكون ذلك الخزان قائما في مكان ما خلف هذه الجدران الصماء. كم وددت لو رأيته. لا بد أن يكون خزانا عملاقا، وإلا فكيف يستمر تدفق الماء الساخن طول النهار؟ ما كنا نستطيع أن نرى سوى ذلك الباب الضيق المنخفض الذي خرج منه الرجل وبابا آخر على بعد أمتار منه هو باب الحمام، كان ذلك حماما للرجال، خلافا للكثير من حمامات المدينة التي تكون مفتوحة للنساء طوال النهار وفي الليل تفتح أبوابها للرجال.

لقد تخلت أمي عن «غسالتها» منذ بعض الوقت، ولا يبدو أن

ذلك جعل مهمتها أكثر صعوبة. كنا نمضي في شارعنا حتى نهايته، نهبط الدرجات الثلاث العريضة إلى ساحة تتشعب فيها الطرق، نتابع طريقنا في الزقاق الأيسر، ننعطف بعد حين يسارا وما هي إلا بضعة أمتار حتى نكون قد وصلنا. ندخل القاعة الكبيرة التي تحيط بها وتقطعها طولا وعرضا دكات فرشت ببسط ملونة وصفت فوقها صرر الملابس، تختار لنا أمي مكانا بعيدا عن تيار الهواء، تفرش فيه بساطا خشنا، تمد فوقه فراشا آخر ناصع البياض موشى بحرير أكثر بياضا، يفوح منه عبق الصابون، وتقودنا عبر غرفة وسطية إلى القاعة الداخلية للحمام، قاعة مربعة تتوسطها دكة لها شكل زهرة، وتحيط بها أروقة في كل منها ثلاثة أحواض، أحواض صغيرة يتدفق فوقها الماء دون انقطاع. تبحث عن مكان لنا حيث تقل الزحمة وتشرع بغسل رؤوسنا واحدة بعد الأخرى. لقد أصبح «الكيل» الذي كنا قد كسرناه قطعا صغيرة في حوض صغير في طرف القاعة الخارجية ثم نقعناه، ناعما كالحرير، وملأ عطره الأخاذ أنوفنا، لكنه الماء الحار ما كان يزعجنا. يتدفق فوق رؤوسنا فيسلق جلودنا، نحاول الافلات من قبضة أمي فلا نستطيع. لكننا في الآخر نستطيع أن نخرج لنستريح، نمضي إلى القاعة الخارجية فيلفح وجوهنا هواء بارد منعش. نسرع إلى خابية الماء في وسط القاعة، لكننا لا نحصل على الماء دون لأي. الخابية مرتفعة لا تبلغ أيدينا حافتها إلا بمشقة ولا نستطيع أن نملأ طاسنا إلا بعد قفز ووقوف على الأصابع. نشرب الماء البارد فنشعر بالسعادة، ثم ندخل قاعة الأبخرة الساخنة من جديد. تبدأ

الجولة الثانية، تغرق رؤوسنا برغوة الصابون الذي يكشف عن بذرته الخضراء وهو ينحل شيئا فشيئا، لون الزيتون الذي أودعه عصارته الثمينة. ينطلق فجأة صوت غناء يأتي من إحدى الردهات. كلا ليس غناء ولكنه موال طويل تؤديه امرأة منفردة، صوتها صادح قوي يمنحه جو الحمام سحرا غريبا. لدى أمي جواب لكل سؤال. إنها تعرف كل شيء. تقول لنا إنهم قد جاؤوا بعروس قروية إلى الحمام. في الأسابيع التالية أبحث في الاستراحات القصيرة دون جدوى عن أعرابيات يصطحبن عروسا لا يمكن التعرف عليها في عريها، أترقب صوتا واثقا ينطلق بموال من زاوية ما فلا أسمعه.

إذا انتهت الجولة الثانية وربما الثالثة وكان النهار قد تجاوز منتصفه، جمعتنا أمي فوق الفراش الأبيض على الدكة فلبسنا ملابسنا، ولفت رؤوسنا بمناديل بيض يوشي أطرافها النمنم، ثم أعطتنا شيئا نأكله.

حمام رأس الجادة أبعد قليلا، قاعته كبيرة مربعة، تزين جدرانها الأربعة قريبا من السقف حاشية من نقوش زرق على بلاط أبيض براق. أوراق مفصصة تتلوى وتتداخل، تتكرر المرة بعد الأخرى، شهادة على عمل متقن دؤوب.

كان ذلك واحدا آخر من الحمامات التي تستقبل النساء في النهار، وفي الليل تفتح أبوابها للرجال. حمامات لا تشير إليها لافتة. حمامات الرجال وحدها تعلق فوطا ومناشف على الجدران في الشارع لتجف، مناشف صفراء كبيرة وفوطا ملونة كنت قد

رأيتها وهي لا تزال شلات حرير ناعم. ما كان أعظم فرحنا حين كنا نقع على كنز من خصل الحرير الملون، نتلمس نعومتها بأصابعنا، يبهرنا لمعانها وسطوع ألوانها. كانت خصلا صغيرة معقودة في طرفها مثل منشة، لا بد من قصها للوصول إلى بداية الخيط في الشلة. خصلا يرمي بها الحائكون دون أن ينتبهوا إلى البهاء الذي تكسبه وهي تستقر في يد طفل، تلك البهجة التي يمكن أن تمنحه أياها. تتابع المسالك دورانها والأنوال حركتها الرتيبة، سيبتهج الحائكون أيضا حين يتقدم النهار وتكون الخيوط الملونة قد أودعت بريقها فوطا تختلط فيها الألوان وتتداخل، ستظهر بعد أيام أو أسابيع عند أبواب الحمامات.

كانت تخرج من الحي مناشف فاخرة، كوفيات وفوط حرير. ليس ثمة معامل ينبعث منها الدخان منذ الصباح الباكر، ولكنها سراديب البيوت تتحول إلى معامل صغيرة منتشرة هنا وهناك. تنشأ وتغلق أو تغير مكانها دونما صعوبة. كان عمالها يبدأون يوم عملهم وينهونه وقت يشاؤون، نساء ورجال، تجلس النساء وراء دواليبهن، يدور الدولاب فتدور المسلكة، ينساب الخيط منها فينتظم على أنابيب صغيرة. أما الرجال فإنهم يجلسون وراء الأنوال، أرجلهم تتدلى في الحفر حيث أقيمت فيها الدواسات. أحيانا تسمع أغنياتهم المنفردة تختلط بايقاع الأنوال الرتيب.

كانت الحفر لا تلبث أن تردم ويعود الهدوء إلى السرداب، ثم يعاد حفرها وتقام الأنوال من جديد، إذ كانت السوق وحدها تتحكم في حياة السراديب هذه، التي ظلت سنوات طويلة تمنح

الناس هنا لقمة خبزهم. ثم أن الأمر بدأ يتغير. لم يعد أحد يشتري هذه الكوفيات والمناشف والفوط. الرجال الشبان انتقلوا للعمل في معامل النسيج الجديدة، معمل نجيب الجادر، معمل الحاج يونس. المعامل الكبيرة قضت على حياة السراديب، الشيوخ لم يعودوا قادرين على الفهم. لقد تركوا لمصائرهم، للبحث المضني عن عمل.

يقظة الذاكرة

ألتفت ورائي فأرى هضبة خضراء عظيمة تحجب ما وراءها. خضرتها هي خضرة عشب الربيع الغض، خضرة متناسقة لا يخالطها لون آخر. بضعة أشخاص ينحدرون فوقها هابطين. تقول أمي: «إنهم عائدون. لقد دفنوا ميتهم.» أتمنى لو أن أمي غيرت طريقها وسمحت لي بارتقاء تلك الهضبة.

مسقط مائي في مكان ما من قرى الشمال، نتوقف عنده، ثم نمضي في اتجاه انسياب الماء بضعة أمتار، نرتقي درجات ثلاثا إلى أرض مستوية مربعة تشبه مسرحا. أين كان ذلك؟ لم تكن الذاكرة قد نضجت بعد لوضع كل صورة في إطارها ومكانها الصحيحين. لقد أخذت مكانها خارج النظام الزمني، وبقيت هناك. لم يقو لا طول السنوات ولا تغير الأحوال على محوها. ثمة شلال آخر أتذكره جيدا، نترك الطريق الترابي وننحدر إلى الشاطئ، ماء صاف ينساب فوق الحصى، يزداد عمقا في وسط النهر فيجعل الابتعاد عن الضفة مغامرة، وتصبح الجزيرة الصغيرة ذات الشجيرات الكثيفة بعيدة رغم قربها. نمضي عكس التيار على الشاطئ الذي يصبح أكثر وعورة، ثم لا يعود فيه مكان لقدم. إنه

يتحول إلى صخور كبيرة نمضي فوقها صعودا وهبوطا في حذر، تخز أطرافها الحادة أقدامنا الحافية وتوجعها. ثم نسمع صوت الشلال، هدير الماء يزداد وضوحا. نتابع التقدم حتى نبلغ موضعا يتعذر فيه التقدم خطوة أخرى، وتصبح أي محاولة مغامرة خطرة. لم يعد مسقط الماء بعيدا، رذاذه يضرب وجوهنا برفق ويتحول هديره إلى صخب هائل. في صمت الجبال العميق ما من صوت آخر سوى صخب الماء، هذه الكتلة البيضاء تسقط شاقوليا فتفور وتزبد قبل أن تهدأ وتنساب في ذلك النهر. يملؤني هذا الاقتراب في الدقائق الأولى بيقظة حادة، يقظة المفاجأة التي أقف أمامها مأخوذة، ثم شيئا فشيئا ينقلني صخب الماء إلى حالة من الغياب، حالة عرفتها مرة في فعل الحمى، يصبح الجسد خاملا وتتعطل الحواس، فتنطلق أصوات الداخل التي ظلت حبيسة قبل ذلك، حالة التجلي، رأيتها مرة وكنت طفلة فلم أعها. كانت النساء قد انتظمن في حلقة وأخذن يتمايلن على ايقاع قرع الطبول، نهض عدد منهن وشرعن في رقصة متساوقة مع الايقاع، ثم بدأت حركتهن بالتسارع، استمرت الرقصة حتى بلغ بهن التعب مبلغا توقفن بعده. إمرأة واحدة تابعت حركتها التي أصبحت الآن أقل انتظاما، ثم لم تعد رقصا وإنما شيئا يقترب من الجنون. استمرت حتى بعد أن هدأ ضرب الطبول وأخفقت محاولات النساء في تهدئتها ثم بعد لأي استطعن أن يمسكن بها ويجلسنها على الأرض بينما تابعت هي حركتها التي أصبحت أقل عنفا، إلا أنها بقيت غائبة. لم أفهم يومها ما حل بالمرأة، واعتبرته في البدء أمرا

مسليا، ثم أثار في شيئا من الخوف إذ أدركت أنه ليس عرضا تمثيليا كما ظننت أول الأمر. حالة النشوة والتجلي هذه أعرفها الآن. لصخب الماء أثر ليس لضرب الطبول، إنه يصبح حاجزا يحجب العالم بواقعه الصلب، فلا يعود موجودا ويقذفني على مشارف الحلم. مساقط ماء عديدة يصادفها المرء في مكان ما في تشعبات الجبال والوديان العميقة، حيثما سئمت الأرض من الامتداد مستوية، مساقط صغيرة منسية، يعادل الوصول إليها اكتشافا. مساقط الماء الشهيرة مثل كلي علي بك ليس لها هذا الأثر. المقهى الصغير حيث التقاء الماء الساقط بالأرض يغص بسواح يتناولون طعامهم وشرابهم، يتحدثون عن رحلة العام الماضي، ينظرون في ساعاتهم مفكرين في وقت العودة، تنقلهم سيارات يقودها سواق ماهرون اعتادوا الطرق الضيقة كثيرة الالتواءات في شعاب الجبال، يمكن رؤيتها على الطريق الذي يمتد غير بعيد ثم يدور محتجبا خلف الجبل. كل هذا يجرح صمت المكان، يفسد هذه السمفونية التي تبلغ ذروتها في صخب الماء.

صحراء الجنوب الغربي ليست مكانا للحلم، فراغ يتيه فيه المرء، يبحث عن علامة يهتدي بها فلا يجدها. صمت الصحراء لا يشعر بالتوحد ولكن بالوحشة، لا يفلت المرء منها إلا في العشية، حيث يغيب الظلام الامتداد النهائي للأرض الشاحبة وتبدو السماء أكثر قربا، خيمة من نجوم. لن يسمع صوتا سوى صوته هو. صمت الصحراء لا يحرص المرء عليه ويستبقيه ولكن

يحاول كسره، صمت الصحراء يوقظ الروح، لكنه لا يدفع إلى التأمل.

قبل تقاطع الطرق عند ساعة الكنيسة الشهيرة رتل من سيارات كبيرة تنقل جنودا، بعضهم يجلس وبعضهم واقف، ينشدون بصوت واحد: «يا أمي كفي الدموعا وانتظري لي الرجوعا»، لا أعرف برفقة من كنت ولا متى كان ذلك، لم يكن الزمن قد اكتسب بعد معنى ما. وكانت تلك أول الصور التي بدأت تتجمع بعد ذلك وتلتئم في صورة واحدة كبيرة: الوطن.

لم يفقد النشيد بهاءه، لم يكف في أية لحظة عن أن يخاطب الروح ويوقظ ذلك الحزن في القلب. لقد تعلمناه فيما بعد في المدرسة، وأنشدناه المرة بعد المرة، فلا كف عن أن يثير تلك الفورة في النفس ولا أصبح أغنية باهتة من كثرة التكرار. ترانيم أخرى كانت التراث الذي منح الطفولة ذلك التوق إلى السمو، تلك الثقة بالمستقبل:

نم يا بني قليلا . . . وعش كريما نبيلا

لا زلت أرى ذلك البيت في أحلامي حتى اليوم، ذلك المزلاج الثقيل لباب الغرفة يدفع حتى نهايته في ليالي الشتاء، الخوف من الظلام، من اللصوص ومن الملائكة والجان على السواء، وذلك السلام الذي يمنحه حضور أمي، كأنها كائن

أسطوري يستطيع أن يدفع عنا كل أذى ويحمينا من كل خطر. أمي تحوك الصوف أمام جمر المنقل، علي أن أذهب إلى البقال لأشتري شيئا، أترك دفتر الرسم كارهة، وحين أعود أجد الرسم قد أنجز، رسمه أخي الذي ظن أنه يقدم لي بذلك عونا. ألجأ إلى أمي أطلب نصرتها لأمزق الصفحة وأبدأ الرسم من جديد. فروة أبي نتدثر بها، نختبئ تحتها، نمرر أصابعنا في صوفها الأبيض الدافئ أو نصنع منها خيمة.

مغارة في صخرة الجبل، لا يمر المرء بها صدفة ولا يصلها دون لأي، «هنا قضى ابن الخياط حياته معتكفا، وهنا في هذه الكوة كان يضع محبرته.»

الوقت يقترب من المساء، هضبة خضراء تمتد حولها السهول، من فوقها ترى القرية أقل بعدا وأصغر مما هي. كتلة من بيوت متراصة لا أتعرف فيها على الشوارع الضيقة التي كنا قد مضينا فيها منذ قليل. تنتظم الفتيات في حلقة للرقص، فأنسل إلى حافة الهضبة، السماء قريبة من بساط الحقول، وأنا بينهما، سعيدة بذلك الغياب، مثل قطرة ماء ضائعة في بحر. ثمة سر معلق في الأفق، كلما أوشكت على الإمساك به أفلت مني. أحسه يملأ الفضاء ولا أستطيع أن أدركه.

ساقية ماء أهم بالقفز فوقها فتضيء تحت مائها كسرة من قشرة برتقالة، سمندل ناري ما رأيت مثله إلا في الكتب، يقف غير

مكترث بدهشتي، بنظراتي الفاحصة، ينساب الماء الرائق فوقه. أريد أن أراه وهو يزحف مبتعدا، أنتظر فأتعب، لكنه لا يتعب. أقفز فوق الساقية، أمضي باتجاه المدينة التي لم تكشف لي أسرارها بعد، وكنت قد رأيت بيوتها من الأسفل تتعامد فوق بعضها، تلتصق كتلة واحدة بيضاء على سفح الجبل. أراها في يقظة الذاكرة تعرض نفسها للضوء، لم ينل منها الزمن ولا طالها الخراب.

ملحق

«جمال القص ومتعة التلقي»
قراءة في مجموعة «زهرة الأنبياء»

ممدوح عزام

لا شك عندي أن أفضل ما تقدمه الأعمال الفنية الرائعة هو أنها قادرة على منح القارئ المتعة من اللحظات الأولى التي يراها فيها أو يقرؤها أو يسمعها، أي من لحظة تلقيها، ولا شك عندي أن عمل «سالمة صالح» الذي أعطته عنوانا موحيا هو «زهرة الأنبياء» من الأعمال الأدبية العربية التي تمتلك هذه الميزة الإبداعية الجميلة.

فمن السطر الأول لكتابها الذي اتخذ شكل القصة القصيرة (مع أننا يمكن أن ننظر إليه كرواية) يشد القارئ إليه هذا السر الفني العظيم فيغدو أسير الكلمات السحرية التي تقوده فيما بعد إلى ثلاث وثلاثين قصة لا يترك الكتاب حتى ينتهي منها، تكتب سالمة صالح: «أعرف أنني سأعود يوما، أبحث عن تلول النرجس تحت ساعة البريد، عن طريق ينحدر عبر حقول القمح إلى محطة القطار، عن. . .» قصة ما من طريق يسلكه المرء مرتين ص٥.

هذا هو مطلع القصة الأولى. وسوف يفضي بنا عبر شبكة من

تداعيات الذاكرة (والكتاب مبني على يقظتها في لحظة الكتابة وقد أخذ عنوانا فرعيا هو «يقظة الذاكرة») إذن سوف يفضي بنا إلى عالم رحب مشرق مضاء بالكلمات التي تأتي لكي تخلده على صفحات الورق بعدما انتهى وجوده الواقعي تماما. فما تبحث عنه الكاتبة لم يعد له وجود سواء كان غابة الحور، أم الماء المنساب تحت العشب الغض، ليحل محله جدار أصم من التوتياء كتبت عليه إعلانات بحروف ملونة كبيرة.

ورغم أن رحلة العودة إلى الماضي حافلة غالبا بالخيبات والانكسار وضياع الأشياء المحبوبة، فإن هذا بالضبط ما تشتغل عليه الكاتبة لتترك بعد ذلك انطباعا مغايرا ومختلفا لما اعتدنا عليه. والسر في ذلك هو أنها تغلبت بطريقة ناجحة على أهم عائق إبداعي، في هذه الحالة، ألا وهو الحزن. ففي حين يتوقع القارئ أن يخلف موت الأشياء الحبيبة فراغا مخيفا وكآبة وكمدا تخلق سالمة صالح لديه توازنا نفسيا قويا حين تجعله يتعاطف مع تلك الأشياء، ويعايشها كأنها ما تزال حية تنبض دون أن تقع، وتوقعه معها، في مطب التفجع والبكاء على ما لن يعود. فما من طريق يسلكه المرء مرتين كما كتبت في خاتمة قصتها الأولى التي أخذت العنوان ذاته.

وابتداء من لحظة التوازن التي أجادت الكاتبة في خلقها تلج بنا بعدها بكل يسر في فردوس من الكتابة متتبعة سير الذاكرة نفسها في تنقلها السريع، وخطواتها غير المرتبة من جهة، وفي استحضار الماضي بكل ما نستطيع من جهة أخرى.

وانبعاث الذاكرة أو يقظتها يحملنا بالطبع إلى الطفولة (ويبدو لي أن سالمة صالح تتفحص تلك المقولة التي تؤكد أن الكاتب يتكون

في سنوات الطفولة واليفاع) والإحالة إلى الطفولة تستتبع رؤية الأشياء والعالم والبشر بعين الدهشة. وأول الشهوات، كما قال ديكارت، هو الدهشة وهي تنجح في نقل عدوى دهشتها إلى القارئ، على الرغم من أنها تلعب لعبة قص خطرة، إذ تجعلنا دائما في حالة معرفة بأن الراوية التي تقص صارت الآن شخصا بالغا كبيرا وقد عركتها الحياة وعلمتها التجارب، لكنها اختارت أن تقص ذلك الماضي بعناية فائقة هي عناية الكاتب المتمرس الذي يعرف بأن تجارب الحياة المنقولة إلى الأدب، ستتواجد كما قال (اريك بنتلي) في غير نسبها وأبعادها الحياتية.

لكن طابع التذكر نفسه، وانتقاء اللحظات والأشياء والتفاصيل الغنية التي تزخر بها القصص لا مناص من أن يذكرنا بأن حالة من «التقمص» قد تلبست الكاتبة بحيث استطاعت خلق ما يمكن أن نسميه آلة زمن عادت بنا إلى الوراء، إلى مرابع الصبا، لكي تمسك بيدنا فتاة يانعة في نواحي الموصل من أرض العراق، وتعرفنا إلى ناسها ورباها وتفاصيل الحياة فيها.

وهي ليست تفاصيل منفردة، بل أن أحد أسرار جمال هذه المجموعة القصصية (أو هذا العمل الروائي) هو أن كل ما ترويه ينبض كالقلب في أعماق كل من عاش منا تلك الطفولة اليانعة. حتى أنني لم أملك نفسي مرات كثيرة من أن أشعر بالأسف لأنني لم أكن كاتب تلك القصص. فكتابتها أمر يخصنا جميعا. كتابة جماعة بلا مراء، لا يملك القارئ إلا أن يشعر بالشوق والحنين إلى تلك اللحظات الرائعة من أيام الصبا. فمن منا لم يتسلق شجرة توت، أو دب تحتها، أو لم تلك الثمرات الغضة الحلوة، أو مضى لزيارة

الجدة، أو ذهب للفرجة على أبواب المدينة..؟ الخ كل ذلك مما يشكل مادة القص الذي تبدع الكاتبة في استعادته.

لكن الشوق هذه المرة لا يدمر صاحبه، على الرغم من الموجبات الكثيرة التي يمكن أن تدفع الكاتبة في هذه النصوص (وهي مهاجرة عراقية تعيش خارج وطنها منذ زمن بعيد، ولا أمل لها قريبا بالعودة إلى هناك) أو تدفع القارئ المتعاطف إلى الوقوع في الشراك السهلة التي يمكن أن تنصبها لحظات التذكر. لكن عهد الرومانسية انقضى، فلم تسعَ الكاتبة إلى أن تجعل من صعوبة عودتها إلى الوطن مأساة، وبالعكس فهي تفتح كتابها بجملة شديدة المباشرة والواقعية قائلة: «أعرف أنني سأعود يوما» دون أن تقع أيضا في فخ التبشير المجاني، إذ جعلت من هذه الجملة الشديدة النصاعة مفتاحا إلى عوالم الذاكرة التي ستستيقظ بكل بهائها، لا كنوع من الاستبدال اللفظي لوطن بعيد وإنما كإعادة خلق لوجهه الحقيقي الذي يكاد يضيع: (لم أعد أرى الصبية وطاساتهم المليئة بالماء بعد ذلك ولا خيوطهم الراعشة وانتظارهم القلق. لقد كبرت وغاب كل ذلك عن الذهن لكني أدرك أني ما أن ألقى في تلك الضوضاء، وما أن أرمى على شاطئ صخري يأتلق بالحصى حتى يتراجع الزمن إلى الوراء وأعود إلى السن التي أحببت فيها كل هذه الأشياء.) قصة أسماك ص ٣٦. لكن الكاتبة في هذه القصة بالذات تخرج للمرة الوحيدة عن منطق سردها، لتطلق على إحدى لحظات الماضي (وهي صيد السمك) حكما أخلاقيا مستمدا من قيم الكبار وعقلانيتهم. ولم أجد مسوغا لذلك. إذ لا معنى له في شكل كتابتها وفي مضمون عملها، فهي لم تعن في المجموعة كلها بما وراء تلك الأشياء التي يقوم بها

الناس، وإنما كان عملها منصبا على اللحظات التي عرفت أو أحبت فيها تلك الأشياء كما قالت، مثلما كان منصبا على الأشياء بذاتها، وهي التي حملت في داخلها جمالا إنسانيا دافئا ومعان روحية عميقة، بصرف النظر عن تقسيمنا الأخلاقي لها.

ولحسن الحظ فإن الكاتبة لا تكرر ذلك في قصصها الأخرى، مفسحة المجال واسعا للخيال، وقوة التذكر ليعيدا الحياة والنبض إلى ما ضاع من بين أيدينا. مرة لأننا لم نعد أطفالا، ومرة أخرى لأننا نفقد الوطن حيث هي أشياؤنا الجميلة.

في قصة (الثمار) تعرض لنا الكاتبة بطولة تلك الأشياء العادية، والكتاب كله على اي حال تمجيد للعادي، وجمال ما هو يومي قد نسهو عنه في خضم الحياة التي نخوضها والمشاغل التي ننغمس بها. وذلك ما تقدمه في قصة (يراعات) فحلم الكاتبة بالإمساك بتلك الحشرات الأثيرة التي تومض في ليالي الحصاد ناجم عن إخفاقها الطويل في سن الطفولة. وفي هذه القصة تضرب سالمة صالح كذلك توقعات القارئ تماما. لقد كان الإخفاق نصيبها دائما حين حاولت التقاط اليراعة أو سراج الليل. لكن هذا الإخفاق بالضبط هو موضوع القصة وغايتها لا بوصفه هزيمة أو انكسارا وإنما بوصفه حلما. إنها تعجز عن الوصول إلى اليراعة، وتعجز بعد ذلك عن الوصول إلى قمة الجبل (قصة الجبل) لكن جمال القصص كامن هنا: عدم تحقق الحلم!

وسوف يستمر هذا وهي لا تني تكرر سردها لأحلام الطفولة وخيباتها الكثيرة. والسر الجميل لديها هو أنها لا تتباكى كما أوضحنا بل تسعى لتصوير ذلك الماضي المندثر بأكثر الصور جمالا ورقة

وعذوبة. فيصير القص نفسه هو اللعبة، بحيث تقودنا الكاتبة دائما إلى حلقتها الفارغة من وجود الحلم وعدم تحققه، قصة (الكنز) و (الثلج الأخير).

وقد يكون العنوان نفسه مدخلا لإحياء الذاكرة من جديد، فيقدم الكلام عن (الحجارة) في القصة التي حملت العنوان نفسه فرصة للكاتبة لكي توقظ أكثر من ذكرى متعلقة بها، سواء كان حكاية الأعمام الذين أرادوا بيع البيت أم الكلام عن أشياء الوالد، أم ذكر الحيوانات أم المدرسة. وكل ما في هذه الذكريات متعلق بالحجارة بطريقة ما. ولعل بعض هذه الذكريات يصلح أن يكون قصة مستقلة مثل الكلام عن المدرسة وكتابة موضوعات التعبير ص ٤٥ وما بعد.

وبعض الذكريات يخرج عن نطاق عنوان القصة، وتترك الكاتبة المجال لخيالها أو ذاكرتها كي تتحرك في فضاء الماضي وفضاء النص معا، بكل حرية، فالكلام عن المدرسة يأتي متناثرا، ومتباعدا في أكثر من قصة (مسالك أخرى)، (ابن الأثير)، (الحجارة). والقصص مكتوبة على كل حال لكي تعمل على الماضي وحده، وإذا ما امتد شريط الذكريات ليصل إلى لحظة الكتابة فإن الكاتبة سرعان ما تقول إن ذلك فائض عن الحاجة، فما من طريق يسلكه المرء مرتين، وهذا ما يحدث عندما ترى معلمتها القديمة بعد مرور سنوات على تركها المدرسة، فتحييها وتعلق (إنها لا تعرف فيّ الطفلة التي كنتها، بعد حين أشعر أن تحيتي فائضة) ص ٧٤.

قصص سالمة صالح تستعصي على الايجاز أو العرض فهي لا تقدم حكاية بأي معنى، وفي بعض القصص تشتد الذكريات، فتقدم الكاتبة في بضعة أسطر أكثر من ذكرى. وعلى الرغم من اختفاء

الحدث أو الشخصية فإن الكاتبة تخلق حوارا داخليا بين القارئ والنص عبر سرد تفاصيل صغيرة مدهشة داخل السياق. ففي (الطاحونة) تصف جزءا مما تراه هكذا: (كانت الأحزمة الدوارة التي يمكن رؤيتها تحدث ايقاعا رتيبا ما أن يصغي إليه المرء حتى يتحول إلى كلمة تتتابع دون كلل وتكتسب في الذهن معنى (جبل) أو (عيد) أو أية كلمة يمكن أن يفكر المرء فيها). ص ٦٤ ووصف حزام الطاحونة وضع نموذجي في نمظ كتابة القاصة، فهي تحرص على أن تجعل للأشياء تأثيرا إنسانيا ما. وأحيانا تبدع قصة متكاملة داخل النص نفسه. فلنقرأ من قصة الطاحونة نفسها: (في الطاحونة كان يمكن أن يرى بين حين وآخر طفل ينفجر باكيا. لقد انتظر طويلا فلم يفلح في التسابق مع الكبار، النسوة والطحانين. ربما فحصت إمرأة قمحه فرأته خليطا من قمح وشعير، إن دوره لن يأتي أبدا، ويراه الطحان فيرق له، يسأله عن اسمه، عن مكان بيته، ويطحن له قمحه، يكف الطفل عن البكاء، ويمسح وجهه بظهر كفه، فتتسع البقعة التي غسلها الدمع من وجنتيه. سيحصل على عشرة فلوس من أمه لقاء هذا العمل. عشرة فلوس تعني ثلاث زجاجات من «الناملیت» وستمحو تلك الحلاوة المحرقة آثار التعب. غير أن عليه قبل ذلك أن يغسل وجهه) ص ٦٥.

والسؤال الذي يشغلنا الآن هو، إذا كانت الكاتبة ضربت الشكل التقليدي للقصة القصيرة، فلم تقدم حدثا، ولا شخصية، ولا حوارا وضربت شكل الرواية النموذجي فلم تعطنا نصا روائيا متكاملا، فكيف استطاعت أن تحل مشكلتي الايصال والتلقي الهامتين جدا؟

أظن أن براعة الكاتبة اعتمدت بشكل كلي على الكتابة ذاتها،

فقدمت جملا طويلة مشحونة بالعواطف، والمفردات ذات الجرس الخاص المتلائم مع المناخ النفسي. لكن الوصف المفصل لعناصر الماضي المستعاد هو الأكثر بروزا في عمل الكاتبة، وهو وصف يستند إلى تشابك العلاقات بين الأشياء والبشر كما ذكرنا من قبل أو إلى ما يمكن أن نسميه أنسنة الأشياء أو دفعها لتكون هي نفسها نوع من مولد خلاق لذلك الماضي المحبب الذي تجول فيه الفتاة اليانعة التي كانتها الكاتبة ذات يوم، ولكن يبقى الوصف قائما بذاته، بوصفه إنجازا إبداعيا مدهشا. لنقرأ: «حقول القمح التي كنا نختبئ فيها فتبلغ سنابلها رؤوسنا، قد اختفت مخلفة مساحات شاسعة من أرض تكسبها جذامة القمح لونها الذهبي، وتتناثر فيها أكوام قش. تنبعث هنا وهناك روائح زهيرات برية جفت واختلطت بالقمح، لقد انتهى موسم النزهات منذ أسابيع...» ص ١٢.

ونقرأ: «الشبابيك المتقابلة في جهتي الايوان ضيقة ذات أقواس، ولم تكن للغرفة التي كنا نعيش فيها رفوف تزدحم بالخزف الصيني، وصحون وكاسات كما عند الجيران، وإنما كانت لها جدران بيض وباب خشبي ثقيل إذا جاء الشتاء علق خلفه باب آخر نصفه الأسفل من خشب مدهون بلون فستقي ونصفه الآخر من زجاج» ص ٤٠ أو: «بعد قليل سيفيق الجميع وتختلط الأصوات ببعضها، أصوات أليفة لأطفال يلعبون، نداء أمهات يدعون الأبناء لفعل هذا والكف عن ذاك، دقات ساعة الحائط تتتابع... أصوات باعة متجولين يعلنون عن بضائعهم الصغيرة... لكننا ننتبه ذات يوم إلى صوت نداء غريب في مكان ما من الحي...» ص ١٠٧ قصة أصوات.

ويمكن بالتأكيد اختيار مئات الأمثلة من النصوص الأخرى للدلالة على الحيوية التي يتمتع بها الوصف في قصص المجموعة، ومن الطبيعي على كل حال أن يشكل العمود الفقري في قصص تجعل من يقظة الذاكرة مجالها الحيوي الوحيد.

كتاب سالمة صالح نوع من القصص التي لا تنتهي، إنها تشبه النواعير، ما تفتأ تدور وتدور لتصب لنا كل مرة قدرا من الماء الزلال. لن يكون أبدا الماء نفسه الذي صبته منذ قليل، رغم أنه مثله ماء طيب قراح.

الموقف الأدبي، العدد ٢٩٩/ ٣٠٠ نيسان ١٩٩٦

الكتابة بوهج الحياة

علي مصباح

«سأعود يوما، أبحث عن تلول النرجس تحت ساعة البريد. . .»
هكذا تبدأ سالمة صالح نصها مدشنة الرحلة الشيقة التي تستدرجنا إليها، عبر الحقول والتلال وفوق الهضاب وعلى دروب صعبة تتسلق الجبل.

دخلتُ الموصل وبيوتها وأكلتُ من رغيف ساخن تتلقفه الأصابع من على الصاج، وجلستُ على حافة النهر، وتتبعتُ الصبية المتراكضين في الحقول، وعرفتُ أمهات ينكببن على قدر داخل «بيت الشعلة» . . . دون أن تطأ قدماي أرض تلك المدينة، مدينة بدأت صورتها تسكن ذاكرتي، مأهولة بالأطفال المرحين، ملتفة في حقول النرجس والقمح وزهور أخرى. . .

زهرة الأنبياء!

بيضة تتفتت بين أصابع نبي (كما تروي الأسطورة)، يقع فتاتها على الأرض، فتنبت زهرة نرجس، زهرة تتفتت وريقات تويجها بين أصابع طفل، فإذا هي برعم نبوءة. لأن الأرض تحمل قداستها في صلبها، وعندما يلامسها وهج الحياة تنفجر أزهارا.

الواقع يطفح بالأسطوري. الأسطورة تغفو في قاع الأشياء، لا تدركها غير العين المتفحصة، عين القلب التي تتوقف عند الأشياء ولا تنزلق على قشرة العالم كمن يسير داخل غيبوبة، غيبوبة الواقع المهترئ باللهاث المضني وراء ما يبدو ضروريا ومهما وهو في الواقع ما يسلب الحياة من جوهرها ويبيد بهجتها.

لا بد أن يكون المرء نبيا، أو شاعرا، شاعرا نبيا، أو في كلمة واحدة طفلا كي تغويه الحياة بأشيائها البسيطة جدا جدا، فيغرق في بهجتها.

حقل النرجس! أنه هناك، إنه هنا، قريب جدا.

لكنه أيضا بعيد جدا. قابع في تجاويف الذاكرة، لا بد من محاولته على نفسه، ومغالبة تكتم الذاكرة على كنوزها، كي يتوهج من جديد: «أبحث عن تلول النرجس . . . بحثت مرة عن غابة حور. . .» يتردد فعل البحث في الفقرة الأولى بكثافة، بإصرار وعناد، حتى يغدو الفصل الأول من النص فصلا منذورا للبحث. فصل محاولة الذاكرة ومراودتها عن نفسها وهي تتمنع وتمانع، وتمتنع. . . فصل مراودة الكتابة، معاناة استدراج النص قبل أن يستجيب فـ: «تنبعث في الذاكرة من جديد سحب الدخان ورائحة الخبز الساخن. . .، وأعود طفلة». الذاكرة والنص يستجيبان أخيرا بعد المكابدة والمعاناة، لينتهي الفصل الأخير «يقظة الذاكرة» إلى الانفجار شلالا من المياه الصاخبة وإذا النص يتحول إلى دفق من المياه: «مسقط مائي. . . ماء صاف، ثمة شلال آخر أتذكره، وهدير الماء يزداد وضوحا، ثم يتحول هديره إلى صخب هائل». إنه هدير الأعماق يفضي إلى لحظة توتر قصوى مسكونة بصخب داخلي

عارم، صخب الذاكرة التي تستعيدها الكاتبة فتهجم بعد التمنع «كتلة بيضاء تسقط شاقوليا فتفور وتزبد» مهيئة لحالة التجلي، حالة تمتزج فيها اليقظة «يقظة حادة، يقظة المفاجأة التي أقف أمامها مأخوذة»، «بحالة من الغياب»، الغياب في ذلك العالم الذي ظلت تراوده وتحاوله على نفسه منذ البداية (بداية النص).

كل العناصر التي تأسست عليها الفصول السابقة من زهور ونباتات وحيوانات وحشرات، وخطى وأنفاس، تتكثف هنا في هذه اللحظة الحبلى، فتهبط شلالا صاخبا جمعته الذات المستذكرة من شتات الأشياء التي فتتها الزمن وهو يأتي على كل شيء.

بحثت عن النرجس، بحثت عن الطفولة الهاربة التي تظل جنة متوهجة في الذاكرة، تحييها الكاتبة بمهارة الساحر، نبضا نبضا، حتى تغدو قريبة جدا، جنة يمكن أن تعود. إذ لا شيء يضيع نهائيا في العدم. كل الأشياء تغفو في سراديب الذات. وكأن لا بد من مراودتها، وكأن لا بد من ذلك الجهد المضني في استدراجها، كي تنهض من جديد فتراها في «يقظة الذاكرة تعرض نفسها للضوء، لم ينل منها الزمن ولا طالها الخراب» كانت هذه آخر جملة في النص.

بدهشة أمام الحياة وعناصرها

سالمة صالح تستعيد الطفولة ونبضها الحار (طفولة العالم والحياة) لا عبر تذكر الصور والأشخاص والأشياء والحادثات، بل أساسا عبر اللغة، لغة بسيطة شفافة ومرحة، جمل قصيرة بسيطة التركيب، وعبارات صافية وأسلوب خال من الزوائد، زوائد التعقيدات الدعية التي تثقل النص بالتزويق وتجعله ينتفخ بخطاب

صاخب مدو بالمصطلحات والعبارات المفخمة (بفتح الخاء وكسرها معا)، وكل تلك «المحسنات» والتبجح اللفظي والزخرف الفائض عن اللزوم.

بمتعة شديدة يقرأ المرء هذا النص ولا يقدر على الانقطاع. هناك سحر ما في لغته الدقيقة المقتصدة، لغة مرحة، خفيفة، شبيهة إلى حد بعيد بوقع أقدام طفلة تنط بين الأعشاب والزهور.

من أين تستمد صفاءها وعذوبتها وحرارتها؟ لعلها كذلك لأنها لغة الأطفال، لغة تهب نفسها طازجة متوهجة برنينها الخافت العذب. إنها كذلك لأنها ليست مدعوة للمراوغة والمخاتلة والتستر خلف هيئة الجدية المفرطة التي تحول النص إلى كومة من الضجر، والحياة النابضة إلى ركام من التجريدات والتعاويذ المقفلة. ذلك أنه عندما يكون هاجس الكتابة الصدق ومنبعها العفوية، لا يمكن لها أن تستدعي سوى لغة الشفافية المرهفة إلى حد الانكسار، ما من حاجة للتزويق لأن للحياة بريقها الخاص وبهجتها.

اللغة ليست أسلوب كتابة، إنها طريقة إقامة على الأرض، نمط سلوكي، ذوق. ولعله من الضروري أن نتساءل نحن العرب، ونحن منذ ما يزيد عن قرن نتحدث عن التطور وعن مشاريع الحداثة الشاملة (أدبية - اجتماعية - فكرية - سياسية)، أن نتساءل عن نوعية علاقتنا باللغة، لأن ذلك سيعني بالضرورة تساؤلا عن نوعية علاقتنا بالحياة وبأنفسنا قبل كل شيء. فالحداثة ليست كما يعتقد الكثيرون، منظومة فكرية مستقلة، بقدر ما هي ايقاع جديد، وذوق جديد، ومعايير جمالية جديدة، سلوك جديد في كلمة واحدة، ونمط إقامة على الأرض. لغة الحداثة إذا هي تلك التي أشعر بالغبطة داخلها، تلك

التي يداخلني نبضها، ولا تغربني. كذلك هي لغة هذا الكتاب، لغة الاحتفاء بالحياة.

سالمة صالح تثبت لنا دون ضجة مفتعلة وخطاب صارخ - وهو شيء نادر جدا في الكتابة العربية - أن ما يسمى بالكتابة الموضوع ليست سوى وهم وعي يطمح للتعالي على الكتابة والترفع على الحياة لا غير.

يعني ذلك أن الكتابة الأصيلة، ليس همها أن تكون في المقام الأول موضوعا فلسفيا أو اجتماعيا أو سياسيا يجثم بكلكله على النص وتطغي ضجته الصاخبة على بقية عناصر الحياة. سالمة صالح تكتب الحياة كما تلتقطها عينا طفلة مشبعة بالدهشة.

الطفل يرى العالم والأشياء ضمن حياتها العفوية لا كما يصورها له التكلف الذهني، أو التبلد بالعادة، فيرى العمق، ويرى السحر، ويندهش. لذلك فإن «كومة أنقاض أو رمل على جانب الطريق ستبقى أبدا عالما جديرا بالاكتشاف، وحصاة تستقر في الجيب كنزا لا يعادله شيء». ولذلك يكون «للحصاة البيضاء دائما سحر يجتذب إليها الأصابع».

لكن حذار!

إن الكاتبة تضع لنا الفخاخ، مثل طفلة يحلو لها أن تورط الكهول - الجادين دوما - في لعبة مرحة لكنها قد تذهب بمهابة مشاغلهم الجدية، الجدية جدا، وقد تربك يقينهم وتزعزع مسلماتهم خلف الأسلوب المرن المرح الذي يوهم ببساطة لا حاجة لها بتعقيد الأمور، تستدرجنا الكاتبة نحو أعماق مستترة خلف براءة الأشياء وبساطتها. ههنا تأخذ الكتابة منحى آخر، منحى خطيرا. إنها تأخذنا

برفق من السطح إلى العمق، عمق علاقة الكائن بالعالم، ويغمرنا ذلك الصخب الذي يحيل إلى حالة من الغياب. وإذا نحن وجها لوجه مع صخب الذات، نغفو عن الخارج، داخل غيبوبة رقيقة تعيدنا إلى محاورة ذاتنا التي كثيرا ما ننساها لانشغالنا الدائم بالخارج الذي يلتهم يقظتنا.

بدهشة الطفولة تستدرجنا الكاتبة نحو أسئلة محرقة محيرة. الطفلة المرحة تستوقفها كل الأشياء وتبهرها وتدهشها، وفيما هي تندهش، تتساءل تساؤلات الطفولة، أكثر التساؤلات إحراجا وخلخلة لنظام المسلمات.

«في طفولتي المبكرة، قبل سن المدرسة، رأيت هذه الأرض مرة أو مرتين وحملت منها جرحا لم أبرأ منه وحزنا صافيا عميقا لم تستطع كل حقائق الكبار أن تغسله». كيف يمكن للكبار أن يقنعوا طفلة بأنها لا تستطيع أن تمد يدها فتتناول القمر في قبضتها، «لقد كان القمر هناك معلقا في طرف الأرض، منخفضا، قريبا، ولم يسمح لي بلمسه، وكنت أستطيع أن أفعل.» وكيف للكبار أن يقنعوا طفلا بأن العشب عشب سواء أكان في الحقل أو مفروشا على أرضية البيت بعد أن تم اقتلاعه وجلبه في كيس، كي لا تخرج الزوجة من أجله إلى الحقول. «إن الطفل ليريد عشبا نابتا، عشبا ينهض عموديا على الأرض ويمد جذوره فيها...».

من بساطة الأشياء، ومن عمق العلاقة ببساطتها تطلع الجملة الفلسفية كومضة تلتمع وتختفي لكنها تترك أثرا عميقا في النفس: «ولكن ما من طريق يسلكه المرء مرتين». ما من زهرة تراها العين مرتين... لأن الحياة التي تخبر ذاتها وتعيش ذاتها داخل غبطة لا

متناهية، إنما تستمد غبطتها من تحولها الدائم. ذلك ما لا تدركه العين المهترئة بالتكرار والعادة. إن التكرار حالة ذهنية لا غير، تماما مثل الثبات والتطابق والجمود.

جوهر الكتابة

هناك في النهاية مقطع أخير أريد أن أنقله كاملا لطرافته وأهمية ما يرشح به من دلالات خطيرة تمس جوهر عملية الكتابة. تقول الكاتبة متذكرة سنوات الدراسة إنها لم تفلح أبدا في وصف يوم ممطر. كان الأمر يبدأ هكذا على الدوام: «خرجت في الصباح، كانت السماء ملبدة بالغيوم والمطر ينهمر غزيرا، وكانت الشوارع تغطيها الأوحال. رأيت الناس يحملون المظلات ويمضون مسرعين».

لقد قلت كل ما أستطيع قوله، ولكن لا بد من كتابة صفحتين أو ثلاث. وتبدو لي إضافة أي جملة أخرى أمرا مستحيلا. ثم أن ما كتبته برمته لم يكن سوى محض خيال، فأنا لا أذكر أنني رأيت ناسا يحملون مظلات... وصورة الأوحال أيضا لم تكن رغم أنها جديرة بالتصديق سوى كذبة، فشارعنا الضيق قد رصف بالاسفلت منذ زمن بعيد... أما شوراع المدينة فقد كانت تبدو بعد المطر أكثر نظافة...».

كل ما كانت هذه الصبية تسعى إليه من خلال هذا التمرين الفاشل هو أن تكتب مثلما يكتب آلاف من كتابنا وشعرائنا! أي أن ترسم حالة خيالية مستنسخة من صورة ذهنية لا علاقة لها بالحياة، ظنا منها (وظنا منهم أيضا) بأن الكتابة لا يمكن أن تتحقق إلا داخل نمطية

محددة. وباستعادة صور وحالات نموذجية، ومعايير ذهنية متداولة - أو مترسبة - إن هي خلت منها خرجت عن أعراف الكتابة.

المهم، أن تلك الطفلة لم تكن قادرة على المضي في كذبتها أبعد مما توصلت إليه في هاتين الجملتين، بينما ينجح الكثيرون في ملء العديد من المجلدات التي تضج بحمحمة خيول وقرقعة سيوف، ووقع حوافر في فياف وأحراش وأدغال لم تعد موجودة إلا في ذاكرة الكتاب والشعراء.

ومن لم يكتب هكذا ولو مرة واحدة، فليرم تلك الصبية بحجر.

*

فصول مكثفة لم يكن يعنيها كثيرا الإفاضة في السرد والاستطرادات. كل فصل، وكل جملة تعي ما تريد الوصول إليه، فتذهب إليه مباشرة ولا تتأخر عنده أكثر من اللزوم. تنتقل الكاتبة من فصل إلى آخر بين الحقول، والجبل والطرقات والبيوت والأشياء مثلما كانت تنط بينها بخفة وهي طفلة، أو مثلما يعود المرء لزيارة أماكن طفولته، لا ليقيم هناك، بل ليرصد لحظات ناتئة من ذاكرة طفولته، يشحذ وهجها من جديد ثم يمر.

كتابة بالحنين، لكنه ليس ذلك الحنين الباكي المتفجع الذي يجعل من الحياة ركاما وخرائب مهجورة، ومن الكتابة مناحة قاتمة. إنه حنين يعمر القفر ويغرس الزهور حتى في البساتين المهجورة ليعيد إليها بهاءها.

حنين دافئ مرح يجعل الحياة غبطة متواصلة قابلة للتجدد على الدوام، ويجعلنا نؤمن بأن الغد سيكون مشرقا بالتأكيد.

هذه الكتابة المرحة التي تبدو بهيئة لهو طفولي مبتهج بذاته كلهو لا غير، إنما هي بالنهاية كتابة حازمة، جادة بمرح، تعي ما تريد. إنها تنقض عالما وتؤسس عالما آخر، عالم الزهور والغبطة، «صباح الوجود» يقول الشابي الذي ينهض نافضا يديه من عالم الجدية المفتعلة الجافة، القاتمة، ذلك الذي تهيجت به إلى حين جوقة الايديولوجيات والزعيق الأخرس لأبواق الالتزام الذي التزم بكل شيء ما عدا الحياة والكتابة.

هذه الكتابة تعيد الاعتبار إلى الحلم وتؤسس فلسفة البهجة ضد فلسفة التجهم والاكفهرار.

مجلة المدى، العدد ١٧ سنة ١٩٩٧

زهرة الأنبياء
أم الربيعين في عين طفولتها

مهدي محمد علي

«أعرف أنني سأعود يوما، أبحث عن زهور النرجس تحت ساعة البريد، عن طريق ينحدر عبر حقول القمح إلى محطة القطار، عن أعمدة المرمر وتيجانها ترتمي في ساحة دار كانت ذات يوم دارنا، وأعرف أنني لن أجد شيئا من ذلك. لقد بحثت مرة عن غابة حور انسللت يوما بين أشجارها فابتلت قدماي بماء لم أره، ينساب تحت العشب الغض يترصد الخطوات الفضولية، غابة لا طريق للسابلة فيها، لم يكن قد مر على ذلك سوى بضع سنوات، بحثت عنها فما وجدت سوى جدار أصم من التوتياء كُتبت عليه إعلانات بحروف ملونة كبيرة.»

هكذا تبدأ الكاتبة (سالمة صالح) حكاية (زهرة الأنبياء) حكاية الموصل (أم الربيعين) التي ترسمها (سالمة) رسما خاصا ومؤثرا.. رسم الكاتبة المبدعة بلسان طفولتها.. طفولة مدينتها، الأمر الذي يجعلني مدفوعا ضد الرحلات السياحية إلى أي مدينة في هذا العالم.. لأن الزيارة العابرة لا تعني بأي شكل من الأشكال -

المدينة التي نزورها زيارة عابرة . . المدينة بأهلها، وطفولتها، طفولة أبنائها. . وها هي (سالمة صالح) تكتب الموصل بذاكرتها القديمة الجديدة، فلا تكون مثل كارت سياحي، بل صندوق أسرار من الخشب الأبنوس المرصع بمسامير الفضة!

عن الأيام الأولى . . السنوات الأولى للدراسة ترسم (سالمة) أكثر من صورة مألوفة ومدهشة في الوقت ذاته: «كانت المدرسة الجديدة بعيدة عن بيوتنا، ولم تكن قد حصلت على ما تحتاجه مدرسة من أثاث، فجلسنا على الحصر بضعة أسابيع قبل أن نحصل على القماطر. لكن كل شيء ما لبث أن انتظم وأصبحت للمدرسة مكتبة أعارتنا المعلمة منها قصصا للقراءة، إلا أنني لم أجد في قصة «الفأر فرفر»، في كلماته الموجزة وجمله القصيرة ما يمكن أن أعتبره مسليا وكنا قبل ذلك قد قرأنا في الكتاب المدرسي قصصا من كليلة ودمنة وحفظنا عن ظهر قلب أخبار حلم معن بن زائدة. لكن جحا الذي دخل على قومه دون أن يبلله المطر المنهمر في الخارج وادعى أنه سار بين القطرة والقطرة بدا لي أكثر ذكاء من الفأر الذي يدلي ذنبه في قارورة العسل.

وتروي (سالمة) أن الطريق من البيت إلى المدرسة كان طريقا طويلا، وفيه مشاهد كثيرة:

«. . اعتدنا أيضا مشهد ذلك البيت على الطريق، يفتح بابه في الصباح وتصف أمامه وفي مدخله سلال فيها ليمون، سكاكر، علب كبريت وأشياء أخرى، الدكان الوحيد في الطريق، نشتري منه ليمونة بفلسين، نضغطها حتى تكتسب رخاوة بين أصابعنا، ثم نحدث فيها

ثقبا فينفجر منها العصير مثل نافورة، نمص عصيرها الحامض ونحن في طريقنا إلى المدرسة، أو نحتفظ بها للفرص بين الدروس.»

وتمضي الكاتبة (سالمة صالح) بنا في دروب الطفولة مثلما في دروب الكتابة الأليفة والمدهشة، فتحكي لنا الكثير الكثير، ومنه حديث «السنونوة» الذي تقول فيه مما تقول: «انعقدت بيني وبين هذا الطائر الذي ظننته نفورا صداقة ما كنت أنتظرها. أصبح يتبعني وأنا أصطاد له الحشرات. ثم أني خفت على سنونوتي من القطط فاشتريت لها قفصا وضعتها فيه في المساء. وفي الصباح وجدتها تستلقي مفرودة الجناحين، ميتة. ما كنت أعرف أن هذه الطيور الصغيرة التي تبني أعشاشها في الغرف العتيقة، غير قابلة للامتلاك.»

هذا هو مسار (زهرة الأنبياء)، ولا مجال هنا للاستشهاد بأمثلة أخرى، بل أن نقول إنه كتاب جميل جميل ولا ينوب عنه شيء سوى قراءته مرات ومرات.

طريق الشعب، العدد٢ السنة ٦٢، أيلول ١٩٩٦

المحتويات

ما من طريق يسلكه المرء مرتين ٥
المعصرة ٧
الاكتشافات الأولى ٩
يراعات ١١
الجبل ١٣
زيور باشا في البئر ١٧
شجرتا التوت ١٩
ثمار ٢٩
النهر ٣٣
أسماك ٣٧
بيتنا ٤١
الحجارة ٤٧
الحجارة أيضا ٥٣
الكنز ٥٥
غزال ٥٧
الثلج الأخير ٥٩
إبن الأثير ٦١

الطاحونة ٦٥
مسالك أخرى ٧١
كلب البدران ٧٧
إشارات ٨١
فاطمة تقرأ القرآن ٨٩
موت دانا ٩١
شرح ابن هشام ٩٥
محمد قره علي ٩٩
أرض ليست لي ١٠١
تعاقب الفصول ١٠٧
أصوات ١١١
صبي تحت الشجرة ١١٣
أبواب المدينة ١١٧
أبواب مغلقة ١٢١
حرير وأغنيات ١٢٥
يقظة الذاكرة ١٣١

ملحق ١٣٧
«جمال القص ومتعة التلقي»/ ممدوح عزام ١٣٨
الكتابة بوهج الحياة/ علي مصباح ١٤٧
زهرة الأنبياء أم الربيعين في عين طفولتها/ مهدي محمد علي ١٥٦

لا شك عندي أن أفضل ما تقدمه الأعمال الفنية الرائعة هو أنها قادرة على منح القارئ المتعة من اللحظات الأولى التي يراها فيها أو يقرؤها أو يسمعها، أي من لحظة تلقيها، ولا شك عندي أن عمل «سالمة صالح» من الأعمال الأدبية العربية التي تمتلك هذه الميزة الإبداعية الجميلة.

ممدوح عزام - مجلة الموقف الأدبي

الحداثة ليست كما يعتقد الكثيرون، منظومة فكرية مستقلة، بقدر ما هي ايقاع جديد، وذوق جديد، ومعايير جمالية جديدة، سلوك جديد في كلمة واحدة، ونمط إقامة على الأرض. لغة الحداثة إذا هي تلك التي أشعر بالغبطة داخلها، تلك التي يداخلني نبضها، ولا تغربني. كذلك هي لغة هذا الكتاب، لغة الاحتفاء بالحياة.

علي مصباح - مجلة المدى

من بين ركام الأعمال المطبوعة قلما يقع بين يديك كتاب يتحدث عن شيء أصيل، دافق، ملذ، يغوص عميقا في مسالك ماض لا زال ينبض بعفوية اسلوب أفضل ما ينعت به أنه سهل ممتنع، أشبه بالشعر وليس بشعر بل أعمق منه. وأشبه بالنثر وليس منه لأنه أغنى أحاسيس ومشاعر.

محمود سعيد - جريدة الخليج